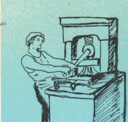
اتين دي لابويسيه

مقال في العبودية المختارة

ترجمة مع مقدمة وهوامش
مصطفى صفوان



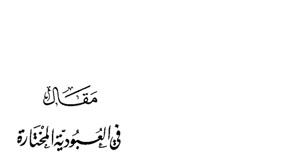








مكتبة مدبولي
القاهرة


مقال
في العبودية المختارة

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

الناشر
مكتبة مدبولي
ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع
تليفون ٧٥٦٤٢١

اتين دي لابويسيه

مقال في العبودية المختارة

ترجمة مع مقدمة وهوامش
مصطفى صفوان

مكتبة مدبولي
القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

١ـ القرن السادس عشر ومقدماته .
٢ـ حياة المؤلف لابويسيه وأعماله .
٣ـ المقال في العبودية المختارة، طبعاته والآراء في صدده .
٤ـ إشارات في قراءة المقال في العبودية المختارة .



١ ـ القرن السادس عشر ومقدماته

كـان القرن السـادس عشر ، وهـو القرن الـذي ولد فيـه اتيْن دِي لابُويْسِيه، القرن الذي طفرت فيه أوروبا فصارت إلى مـا هي عليه من الغلبة والرخاء . ولم تكن هذه الطفرة نقلة من العدم إلى الوجود أو من « ظلمة العصر الوسيط » إلى النور وإنما مهدت لها الحقبة الأخيرة من هذا العصر بين القرنين العاشر والثالث عشر : استغلال أمهـرَ للطاقات المتولدة عن جريان الأنهـار وحركـات المد والجـزر وهبوب الـرياح ، تجلت آثاره في مجالات متعددة كطحن الغلال وغربلة الدقيق وتكبيس الأقمشة ودبغ الجلود ، تقدم في إستخراج الفضة والقصديـر والحديـد الذي تيسر بفضله صنع المحاريث القادرة على تقليب التربة الأوروبية الرطبة الثقيلة تقليباً عميقاً فضلاً عن إستخدامه في التسلح ، تقدم في قطع الأحجار حتى أن فرنسا إستخرجت من جوف تـربتها بين القـرنين الحادي والثالث عشر أحجار تزيد عما استخرجته مصر القديمة في أي عهد من عهودها وإن يكن الهرم الأكبر وحده قـد ضـم ٢٥٠٠٠٠٠ متر مكعب من الأحجـار ، تحكم في الجبـال بحفـر الأنفـاق وفي مجـرى الأنهار بحفر القنوات وبناء السدود والخزانات مما أدى إلى ربط المـراكز التجارية الكبرى بين البحر الأبيض المتوسط وبحر الشمال وإلى رواج

المعـارض والأسواق التجـارية ، إستخـدام المطارق الآليـة واستخدام المضخات الهوائية في رفع درجة الحرارة في الأفران حتى أن لندن قد سبقت إلى الشكوى من فساد الجو بين عامي ١٢٨٥ ـ ١٢٨٨ ، زيادة في المحاصيل الزراعية وبخاصة القمح بفضل تـوسيع مسـاحة الـرقعة المزروعة وتغيير مناهج الزراعة وتحسين وسائلها ومعداتها حتى صارت فناً تجريبياً توضع فيه المؤلفات وصارت الأراضي التابعة لبعض الأديرة بمثابة مزارع نموذجية ؛ زيادة في الثروة الحيوانية بفضل تحسين النسل بين المواشي والأغنام ، تجديد في فنون الملاحة بتحسين البوصلة التي أمكن بفضلهـا شق البحـار بـدل إلتـزام السـاحـل وبـوضـع الخـرائط المضبوطة وتبسيط جداول حساب المثلثات وبناء طرز جديدة من السفن أكبر حمولة أو أسرع وابتكـار دفات يتسنى بهـا توجيهـاً أدق ، إلى غير ذلك من التجديـدات التي جعلت الإلتفاف حـول القارة الأفـريقية في الطريق إلى الهند وجعلت إكتشـاف العالم الجـديد يـدخلان في حيـز الإمكان . يتوج هذا كله تلك الآلة التي هي نموذج الآلات جميعاً في دقتها والتي تنتج هذا الشيء العجيب الذي لا يتسنى بدونه قياس الطاقة ولا فرض معايير للإنتاج يقاس بها الأجر ، ألا وهو الزمن المضبوط : إن إختـراع الساعـة لم يغير فقط من العـلاقـات الاجتمـاعيـة بين أعضـاء الطبقات المختلفة وأعضاء الطبقة الواحدة، مثال ذلك أن عمال البناء قـد صـاروا أكثر حـرية وأقـدر على التهديـد بالإضـراب من غيرهم لتعـذر محاسبتهم بعدد القطع المنتجة في الساعة ، بـل أن المجتمع كله قـد إنتقـل من زمن لم يكن ينفصل عن العبـادة ولم يكن الناس يتعـرفـون مواقيته من شروق يعلنه صياح الديك إلى غروب يؤذن بالظلمة ألا بقرع النواقيس في أجراس الكنائس كأنما لا ذكر للآونة التي هم فيها إلا بذكر

الله إلى زمن جديد كل الجدة . زمن لا إرتباط له بالصلوات ومنه بدورات الأفلاك ، فجر وصباح وضحى ثم ظهر وعصر وغروب ومساء ، وإنما تقسمه إلى وحدات متساوية دقات الساعات المشيدة في الميادين العامة بأمر الدولة ـ سواء كانت هذه الدولة مدينة مثل جنوة عام ١٣٥٣ أو مملكة مثل فرنسا حيث كانت الساعة المقامة على رصيف السين المعروف حتى اليوم باسم رصيف الساعة تدق دقاتها المنتظمة منذ عام ١٣٧٠ . حتى الكنيسة قد انتهى الأمر بها بعد الرفض الأول إلى قبول عقارب الساعة على أبراجها ، هذا في حين ظلت الكنيسة في الشرق على إبائها . ولكن إذا كانت الكنيسة الغربية قد قبلت أخيراً إخضاع الزمن للمنافع البورجوازية وليس لمستلزمات الأبدية فلأن الغرب كان قد ظهر به رجل جديد ، رجل الوقت عنده مال .

فقد كان من أثر ما سبق ذكره عن زيادة الإنتاج أن زاد عدد السكان الذين يخرج منهم المستهلكون وتخرج أيضاً الأيدي العاملة . أضف أن ظهور الإسلام لم يؤد ـ بخلاف رأي ساد بعض الوقت ـ إلى فصل الشرق عن الغرب بل أن مراكزه العمرانية الكبرى كانت بمثابة قوى استهلاكية ضخمة ما كان يتسنى بغيرها بعث الغرب بعد تأخره بعثاً تجارياً جديداً . فلا شك في أن تجار البندقية وتجار المدن الإيطالية الأخرى الواقعة على ساحل البحر الأبيض قد كونوا معظم ثرواتهم عن طريق تعاملهم مع العالم اليوناني ـ الإسلامي من بيزنطة إلى الإسكندرية ، ولا شك في أنهم قد استعاروا عقلياتهم ومناهجهم ممن سبقهم من تجار بيزنطة والتجار العرب . هؤلاء التجار الجدد الذين يعود إليهم الفضل في إنتشار المدن وفيما حظيت به من السؤدد حتى صار بعضها دولاً والذين أحدثوا ، بعد النقل ، تجديداً ثورياً في ميادين

المحاسبة والصيرفة والتأمين والإئتمان والتعاقد بمختلف أنماطه قد بلغت سعة آفاقهم الجغرافية والاقتصادية وبلغ حجم الأموال التي كانوا يتصرفون فيها حداً صح معه وصف ظهورهم بكونه ظهوراً لرجال الأعمال (وإن لم يصدق وصفهم بالرأسماليين بالمعنى الماركسي) وتألفت منهم طبقة لم تجعل للكنيسة والنبلاء مناصاً من أن يحسبوا لها حسابها .

كان موقف الكنيسة يتلخص أولاً في هذه الجملة : « التاجر لا ينال رضى الله ـ أو بصعوبة » . ولكن بعد قرنين من التوسع التجاري وبعد أن ظهرت في المدن حرف جديدة يخرج بها العمل من دائرة الفلاحة ، أدرجت الكنيسة التاجر في صفوف سائر العاملين الذين يصدق عليهم الحكم الإلّهي المنصوص عليه في سفر التكوين : « تكتسب عيشك بعرق جبينك » . إلا أنها ظلت على إبائها للربا لأنه كما قال القديس توما الأكويني في القرن الثالث عشر « بيع لما لا وجود له » . وظل وعاظها يتوعدون المرابين والصيارفة شر توعد : « سوف تعدل كميةَ الأموال التي ينالونها من الربا كميةُ الأخشاب الموقدة في الجحيم لحرقهم » . ولكن من يعطي الفقراء إذا لم يكن الأغنياء[1] ؟ ثم أليست أعمال البر مجعولة لفداء الربح ؟ ليعط التجار إذن الأخوة الرهبان ـ وبخاصة الفرنيسكان ـ ما يعينهم على فتح دور الله وتكريس مواهب أعظم فناني العصر لتجميلها بفلورنسة أو أسيز . ثم أليس الربح عطاء من الله ؟ ثم أليست كل صفقة مجازفة ؟ وأليست كل مجازفةٍ القضاءُ

(۱) تناسى السائلون هذا السؤال الآخر : وكيف هذا الثراء الفاحش إلا بإبقاء الفقراء على فقرهم ؟ .

فيها بيد العناية الإلهية ؟ ـ تلك كانت لاهوتية رجال الأعمال التوسكانيين التي عبر عنها القديس برنار أحسن تعبير إذ ذهب إلى تبرير الفائدة بما يجلبه توظيف الأموال من النفع : إنها تساهم في حسن نظام المجتمع المسيحي . صحيح أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده ولكنه يعيش به أيضاً ، خاصة وأن رجال الأعمال لم يغفلوا إرضاء ضمائرهم فأغدقوا على الكنيسة أموالاً كانت في أمس الحاجة إليها في صراعها مع الأمراء كما أنهم لم يغفلوا شراء أسهمهم في الجنة بالنص في وصاياهم على حصص تخصص للقسيسين يتولون إنشاءه وإدارته من مؤسسات المعونة والإحسان .

إذا كان رجال الأعمال قد سهل عليهم إرضاء الكنيسة وربما (فيما يتعلق ببعضهم على الأقل) إرضاء ضمائرهم بحسابات ليوم الحساب فقد تفاوتت علاقاتهم بطبقة النبلاء بين المزاحمة والإزاحة والإندماج . إنتهت المزاحمة إلى الإزاحة دون عناء في مدينة مثل فلورنسا كان الكثيرون من أعضاء أسرها الارستوقراطية قد اشتغلوا بالتجارة لمكاسبها ولتدهور الاقتصاد الريفي ذي النمط الإقطاعي . أما الإندماج فنراه في مدن مثل جنوه والبندقية زحف إليها نبلاء الريف بعد نموها فتكونت منهم ومن أثرياء التجار أرستوقراطية جديدة حتى قيل في البندقية : « القادة (الدوج) تجار والتجار أمراء البحر » . ثم حتى المدن التي كان لها تجارها يسكنونها منذ البدء (أي كانوا بورجوازيين وكان النبلاء من ثمة يدرجونهم في زمرة « الشعب ») حتى هذه المدن قد حل فيها الوئام بين الطبقة الجديدة وبين الأرستوقراطية القديمة محل الصراع الذي كان يسود علاقاتهما من قبل ـ صراع كان مداره في أكثر الأحيان رفض التجار أداء المكوس الباهظة التي كان النبلاء يريدون فرضها

عليهم كلما مروا بالطرق أو الأنهار التي تخترق أراضيهم . وكان السبب الأول في هذا التغير هو أن رجال الأعمال لم يعودوا يخشون النبلاء بقدر ما يخشون الطبقات الشعبية المؤلفة من الصناع وأصحاب الحرف في المدن الذين صار كفاحهم يهدد إستقرار هيمنتهم على التجارة الدولية ويهدد من ثمة قوتهم السياسية . أضف أن التجار لم يعد يصعب عليهم إختراق الحواجز المقامة بين طبقتهم وطبقة النبلاء إما بعقد أواصر المصاهرة أو بشراء أراضيهم أو باصطناع طرائقهم في الحياة في بذخ لم يعد يستطيعه غيرهم . هذا عن التجار في المدن المستقلة التي صاروا هم حكامها الفعليين . أما حيث كان زمام الحكم بيد الملوك والأمراء (مثل فرنسا وإنجلترا ومثل روما نفسها من حيث أصبحت روما مقراً لما سماه بعض المؤرخين عن حق « الأمير البابوي ») فلم تكن لهم بطبيعة الحال مثل هذه السلطة ، بل هم تعلموا من تجاربهم وتجارب غيرهم (وبخاصة الفلاحين) أن من تمرد بالقوة سحقته القوة . ولكن ذلك لا ينفي ما كان لهم من نفوذ سياسي لا يستهان به . فهم لم يكن للملوك والأمراء بد من استشارتهم في المسائل المالية والاقتصادية التي نعلم مدى أهميتها في كل قرار يتعلق بالحرب والسلم. وطبيعي أن التاجر سواء في الأقاليم أو في العواصم كانت تهمه المشاركة في المجالس لا ليدلي برأيه فقط بل ليتعرف أيضاً سياسة الدولة ممثلة فيمن يشترك في هذه المجالس من نواب الملك ، إن لم يكن الملك نفسه . كانت هذه المشاركة عنده أهم من الحصول على الوظائف ، ولكن ذلك لم يكن مانعاً يمنعه من شراء الوظائف لأبنائه وأعضاء أسرته وفي مقدمتها وظائف الملتزمين بتحصيل الضرائب . ثم أن مهارة التجار التي تتجلى في سعة معلوماتهم وإحاطتهم بمجريات السياسة على الصعيد الدولي ، كل هذا

قد جعل الملوك يصطنعون مستشارين أو دبلوماسيين أو وزراء للمالية أو مشرفين على بناء أساطيلهم ، إلخ . ثم أهم من هـذا كله أن الملوك والأمراء لم يروا بدا من الإلتجاء إلى المصارف طلباً للقروض لتمويل حروبهم التي لا تنتهي ، مما أتاح للمقرضين الحصول على حقوق هائلة أما في شكل ضمانات (كالحصول على نسبة معينة من إنتاج المعادن) وإما في شكل إمتيازات (كحق استغلال الأراضي المحتلة بفلسطين وسوريا أيام الحرب الصليبية) فضلاً عن التوسع في الحصول على المناصب المدنية والعسكرية على السواء .

هؤلاء التجار قد تألفت منهم بالمعنى الصحيح للكلمة طبقة تجلى وعيها في الاتحادات التي إنتشرت في مختلف المدن والبلاد حسب مناحي نشاطهم (تجارة اللحوم أو النسيج أو الإستيراد والتصدير ، إلخ) دفاعاً عن مصالحهم . وقابل هذه الاتحادات من الطرف الآخر للمجتمع اتحادات أخرى سميت أيضاً باسم المهن لأنها كانت تضم عمالاً يشتغلون بمهنة واحدة ويلتزمون بالقسم على ملاحظة إتباع القواعد المنصوص عليها من حيث شروط العمل وطرق الحصول على المواد الخام وتصريف البضائع المصنوعة منها وجودة الإنتاج وعلى أن يحترموا سلطة المحلفين المكلفين بمراقبة إحترام هذه الشروط . هذه الاتحادات كانت خلقاً من خلق العصور الوسطى لا صلة لها بالمؤسسات المعروفة في قوانين الدولة الرومانية ولا يدري أحد على التحقيق كيف نشأت . وإذا صح قول ماكيافللي إن صراع الطبقات هو مفتاح تقدم المجتمعات فربما كنا لا نغالي إذا قلنا إن ظهور هذه الاتحادات كان أحد عوامل تقدم الغرب شريطة أن نأخذ في الاعتبار قيامها في مدن إما مستقلة وإما متمتعة بإمتيازات قانونية تعترف بها الدولة

ـ وهو الشرط الذي لم يتحقق في الصين أو الشرق الأوسط مثلاً . وأياً كـان الأمر فلقـد سميت هذه الاتحـادات باسم تـرجمته الحـرفيـة هي « المتجسديات » (على وزن « المتصرفيات ») لأنهـا تتألف كـالجسد من كثرة من الأعضاء ولكنها كالجسد أيضاً تسـري فيها وحـدة خفية أو « وهمية » هي التي تجعل منها شخصاً قانونيـاً تملك بمقتضاه حقـوقها وواجبـاتها وخـزانتها وأختـامها وشـاراتهـا . فـلا غـرو إذا كـانت هـذه المؤسسات قد نـالت قسطاً وافـراً من تفكير رجـال القانـون والمهتمين بفلسفته ، الأمر الذي لم يلبث أن ترددت أصـداؤه في مجال الفلسفـة السيـاسية وفلسفـة الدولـة بنوع خـاص . هذه نقـطة تحتاج إلى بعض الإفاضة حتى يتسنى لنا أن نقيس مدى ما أتى به من الجدة مفكرو عصر النهضة ولابويسيه بالتحديد .

تقوم النظريات السياسية في العصر الوسيط على فكرة الكل . فهي تـرى في العالم كـلاً وتـرى في كـل مـوجـود سـواء وجـد بـالتـرابـط (الجماعة) أو بـالإنفراد جـزءاً وكلاً في آن معـاً : جزءاً تحتمـه العلة الغائية للعالم وكلا له علته الغائية الخاصة . ومنه يخرج التصور الوسيط للمجتمع . فالجماعة الإنسانية جزء من الكل يستمد وجوده من وجـود الله ، وكـل مجتمع أرضى عضـو في مـدينـة الله التي تشمـل السمـاء والأرض جميعاً . أما المبدأ الذي يقوم فيه كيان العالم أو دستـوره فهو الوحدة ، لأن الله واحد وإرادته واحدة ، فكيف يقع إنقسـام الجماعـة الإنسانية إلى نظامين : الروحي والزمني ؟ الجميع يتفق على أن هناك وحدة عليا يقع فيها الوفاق ، ولكن كيف يتم ؟ من البين أن الأمر يتعلق هنا بما يسمى في الفلسفة السياسية بنظرية الأعلوية ، وأعني بها السلطة التي تعلو كل سلطة أخرى ، فإن وقفت سلطة بحذائهـا إنقسم الحكم

وهدد إنقسامُه بالحرب الأهلية . ولن نلبث أن نرى أن ما عرف باسم الصراع بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية إنما كان في الحقيقة صراعاً بين قوتين تعتبر كل منهما نفسها قوة روحية وزمنية في وقت واحد ، فالسلطة الروحية ترى ألا حكم للدنيا إلا بالدين والسلطة الزمنية لا ترى بغير الدين قياماً لحكمها . كانت عقيدة الكنيسة هي أنه لو كان من الممكن أن توجد في هذه الدنيا مملكة واحدة تضم الإنسانية جمعاء فهذه الدولة لن تكون إلا الكنيسة التي أقامها الله نفسه . ولا يعني ذلك أن الكنيسة تنبذ مبدأ الفصل بين السلطتين بل هي ترى فيه إعراباً عن القانون الإلّهي . الذي حرم حمل السيف على من حملوا السلطة الروحية نيابة عن المسيح ؛ فقد أعطى الله السيفين ، سيف الدين وسيف الدنيا ، لبطرس ومن خلاله للبابا كيما يحتفظ بالأول ويسلم الآخر للآخرين . ولكن هذا التسليم ليس تمليكاً بل إستخداماً أشبه باقتطاع الأراضي التي يترك النبيل حيازتها إلى محاسيبه من الفرسان ، وما الملك إلا المحسوب الأول للبابا ، والقسم الذي يؤديه أمام البابا عند تتويجه هو المثل الأكمل على العهد الذي يهب به الفارس نفسه لخدمة النبيل . فمن حق البابا ، لا بل أن من الحق عليه أن يرفع حيازة الإمارة (إمبريوم) عن حاملها إذا ثبت عجزه أو فساده وأن يسندها إلى الأصلح . أما المخالفون لهذا الرأي فقد صعب عليهم أن يستنتجوا أعلوية السلطة الزمنية من مبدأ الوحدة الإلّهية ، وإن كانت ذكرى العهد الأول الذي كانت الكنيسة تخضع فيه للإمبراطور خضوعاً يزيد أو ينقص لم تمح بعد من الأذهان . إلا أن البعض مثل جيّوم الأوكّامي ومارسيل البادواي (من بادوا بإيطاليا) لم يحجم عن التشكك في وجوب تحقق دولة تشمل الإنسانية جمعاء ويرأسها رأس واحد ، ولو صح هذا

الوجوب لكانت تلك الدولة تُبتلع فيها الكنيسة ، فالوحدة الواجبة إنما هي في الترابط . فرجال العصر الوسيط قد إنقسموا بين مناصر لأعلوية السلطة الروحية ومعاد ولكنهم جميعاً ظلوا تُقيدهم فكرةُ الجماعة الإنسانية بما هي كل شبهوه بالجسد الإنساني الذي يتحقق كماله في الرأس السماوي . هذه الفكرة وإن ظهرت فيها غلبة الخيال المستعار من صورة جسمه على تفكير الإنسان أدت مع ذلك إلى نتائج مثمرة .

ذلك أن فكرة المجتمع الإنساني بما هو كل لم يتأخر تطبيقها على كل مجتمع جزئي : فكل مجتمع جسد غيبي في مقابلة الجسد المنظور ، جسد سياسي باق في مقابلة الجسد الفاني . ومنه تخرج فكرة الجزء بما هو عضو تلزم التضحية به إذا وقع التعارض بين مصالحه ومصالح الجسم بما هو إعراب عن إرادة الكل ، وإن كان هذا اللزوم ضرراً بالكائن العضوي ينبغي تجنبه بقدر الإمكان . ثم من فكرة الكائن العضوي بما هو كل يضم المتشابه (كالعينين والقدمين) والمتباين (كالعين والقدم) ننتقل إلى الفروق في المراتب والأعمال والأحوال وإلى تصور الأفراد بما هم أعضاء الجسدين الديني والسياسي لا كواحدات متساوية بل كفئات اجتماعية متمايزة . كذلك يؤدي الاختلاف في الوظائف وخضوعها لمحرك أول يثير نشاطها ويوجهه (الرأس أو القلب أو الروح ، أيا كان اسمه) إلى القول بضرورة الإنفراد بالحكم : إما الملك وإما البابا . غير أن كتاباً آخرين رفضوا هذه المغالطة محتجين أنه مهما تعددت أوجه التشابه بين الجسم الغيبي والأجسام الطبيعية فإنها لا تمحو الفروق بينها . ولكن لما كان الجميع لا يرون للمجتمعات الإنسانية أصلاً إلا الخلق فقد ذهب معظم الكتاب ، وفي طليعتهم مارسيل البادواي ، إلى أن الله وإن يكن قد

خلق الكنيسة خلقاً مباشراً (وهو الأمر الذي لم يكن أحد يفكر في إنكاره) قد ترك مع ذلك للإنسان الحرية في خلق الدولة مسترشداً بنموذج التعضون الذي تزوده به الطبيعة ، غير أن هذا الكلام على سلامته (في حدود التصورات أو المقولات العقلية التي كانت تحكمه والتي لا نزال نرى سيطرتها على بعض العقول حتى اليوم) ما كان ليؤدي إلى نتيجة ترتاح إليها الأذهان بعض الشيء ما دامت تعوزه الصياغة القانونية . وهنا نرى أثر مُنَظِّري المتجسديات وأثر القانون الروماني الذي استعانوا به في تنظيرهم .

إذا سلمنا بأن الله هو الحاكم الأوحد للكون وأنه المانح لكل سلطة ، نتج أن كل سلطة على الأرض ، روحية كانت أو زمنية ، إنما هي مثل مصغر للسلطة االآلهية ، قائمة بأمرها . ذلك كان الاعتقاد المشترك في العصر الوسيط . غير أن هذا الاعتقاد قد داخلته منذ البدأ عوامل الهدم بفضل قراءة القدماء ، فالقول بأفضلية النظام الملكي على سائر النظم لا يمكن إلا أن يداخله الشك بفضل المقارنة الارسطوطاليسية بين مختلف النظم والدساتير . ولكن دور الحجج الدينية مضافاً إليها فكرة « السيد » الجرمانية (سيد الأتباع المحاربين وسيد الأرض ومن عليها من القن) كان من شأنها تغذية الاتجاه إلى الاشادة بشخص الملك إشادة تعلو به فوق الجماعة التي يرأسها علوّ الله على الكون ، لا بل هو قد أُسند إليه نوع من الألوهية بما هو خليفة الله على الأرض . ويبقى أن هذه التعلية لشخص الملك لم تنفصل يوماً طوال العصر الوسيط كله عن توكيد هذه القضية : إن العلاقة بين الملك والجماعة تقوم في حقوق وواجبات متبادلة بين الطرفين اللذين يتكون الكل العضوي من اتحادهما . فالسيادة لم تكن قط حقاً صرفاً بل كانت

في المحل الأول واجباً ، وما يزيدها طابعها الآلهي إلا إبهاظاً لأنها بهذا المنظار تكليف ، فالحكام مجعولون للشعوب وليس الشعوب للحكام .
كل هذا تلخص في ربط الأعلوية بالمنصب لا بالشخص ثم في التفرقة الصريحة بين هذين الحدين ومهد الطريق لظهور فكرة السيادة الشعبية بفضل تطبيق قواعد القانون الروماني على المتجسديات .

فقد كان من تعاليم الكنيسة أن الإنسانية قد عرفت قبل الخطيئة زمناً سعيداً عاشت فيه وفاقاً لقانون الله وقانون الطبيعة، وساد فيه الإشتراك في الخيرات والحرية والمساواة. كانت الكنيسة تريد بهذه العقيدة دعم أعلويتها ولكن مناهضيها رأوا فيه دليلاً على أن نشوء الحكام إنما كان قراراً إتخذه الناس بعد الخطيئة : عقد تبعية أشبه بالتكليف الذي سبق ذكره . وما يتنافى ذلك مع أصل الملكية وحقها الألهيين ، فما كان الشعب إلا أداة بيد الله ، بنفثه وحده أمكنته ولادة الحكام . وكان أن انتصر هذا الرأي انتصاراً حاسماً بفضل هذا النص الوارد في موسوعية جوستنيان : « ومنطوق الإمبراطور أيضاً (أي بالإضافة إلى قرارات مجلس الشيوخ) له قوة تشريعية ، لأن الشعب ، بالقرار الملكي الخاص بأعلويته ، قد حول إليه جميع أعلويته وسلطته كاملتين » .
يبقى السؤال : هل هذه التبعية المختارة بمقتضى هذا التحويل هبة لا تمنع بقاء جوهر الإمارة (إمبريوم) في حضن الشعب أم هي نزول لا رجعة فيه عن جميع صلاحياته ؟ هنا خرج مارسيل البادواي بنظرية تصدق على كل حكم أياً كانت صورته ، مؤداها أنه ما دام الحاكم جزءاً من الكل وما دام الجزء ، ولو كان الجزء الرئيسي ، أقل شأناً من الكل وما دام اختيار التبعية هو في حد ذاته تشريع ، فالشعب هو المشرع الأول والحاكم مقيد بالقوانين في كل ما يضع ، فما هو إلا الأداة التي

تصرف بواسطتها المتجسدية أو الجامعة أمورها . وأضاف نيقولا الكوساني إلى ذلك أن التشريع والإدارة أساسهما الإنتخاب المعرب عن الإدارة المشتركة والذي يصبح به الحاكم شخصاً عاماً أو مشتركاً ، فما هو بمستطيع أن يقوم مقام الأب من الأعضاء إلا إذا سلم بكونه من خلق الكل . هذه النظريات كانت تتضمن عدا مبدأ التفرقة التي سبقت الإشارة إليها بين الشخص والمنصب نظرة إلى الحاكم أياً كان ، إمبراطور أو بابا ، تسوى بينه وبين كل من رأس متجسدية ما . فلا غرو أن دانت العصور الوسطى للمتجسديات بفكرة الدولة ذات المؤسسات التمثيلية أو النيابية : فالإمبراطور ليس الإمبراطورية ، وإنما هو يمثلها بفضل منصبه ويمثل من تألفت منهم رعيته ، كذلك حقوق الشعب : إنها ليست الحقوق الشخصية لمجموع الأفراد بل الحق العام الذي يتمتع به مجلس مؤلف دستورياً ، طبقت عليه القاعدة المستمدة أيضاً من المتجسدات : قاعدة الأغلبية باعتبارها تمثل الكل . وهو ما يعني ، إذا أردنا التعبير عن هذه الفكرة تعبيراً دقيقاً ، أن المجلس التمثيلي يقوم مقام جميع من يمثلهم بحيث تكون لقراراته ذات الصفة القانونية التي كانت تكون لمجلس الجميع ـ لو أمكن اجتماع الجميع في مجلس واحد . هؤلاء الممثلون أو النواب لا يمارسون سلطاتهم بما هم أفراد ولا يتمتع مجلسهم بحقوقه وواجباته بما هو مؤلف منهم كأفراد بل بما هو (وهنا نصادف فكرة أخرى مستمدة من المتجسديات) « شخص وهمي » أو إفتراض قانوني . وكما أن الكنيسة لا تستطيع أن تصدر قراراً بالحرمان ضد المتجسديات لأن المتجسدية شخص باق على تعاقب الأجيال ، مما يجعل مثل هذا القرار يقع على أجيال بريئة ، كذلك تلزم قرارات الملك من أعقبه على الحكم لأن الذات الحاملة حقيقة

للحقوق والواجبات ليست الملك بما هو جسد بل الدولة بما هي أيضاً « شخص وهمي » .

خلاصة القول هي أن الفكر الوسيط بعد أن بدأ من معتقدات أو مسلمات من شأنها أن تؤدي إلى توحيد السلطة توحيداً مطلقاً سواء في المجال الزمني أو الروحي قد انتهى في الواقع إلى ثنائية لا علاقة لها بالغائية ، متعددة الأوجه : بين الملك من حيث فرديته ومن حيث منصبه ، بينه بما هو حاكم وبين الشعب بما هو محكوم ، بين الشعب وبين مجلسه التمثيلي ، وأخيراً بين الأفراد الذين تتألف من عددهم الجماعة أياً كانت وبين الحامل والذات الحاملة حقيقة للحقوق والواجبات والتي هي « شخص وهمي » . غير أن هذه النتائج لا تعني أن مفكري العصور الوسطى قد رجعوا عن مقدماتهم ، فقد ظل تصورهم للجسم السياسي، على حد تعبيرهم، تصوراً عمودياً قمته الله وظلت نظرياتهم بالتالي نظريات مثالية. أي لا تنفصل عن استخراج ما يوجبه كلام الله أو بالأصدق تفسيره. ومنه نرى مدى الصدمة التي أثارها ماكيافللي إذ قال بأسلوبه المبضعي : « كم تخيلنا من نظم لم ترها عين قط . فعلام هذا التخيل وأنت إن لم تعلم إلا ما وجب فإنما تعلم ما ينفيك وليس ما يبقيك ؟ » ولكننا قبل أن ننتقل إلى الكلام عن عصر ماكيافللي ، عصر النهضة ، ينبغي علينا أن نقول كلمة عن أحد العوامل التي كان لها الأثر الحاسم في بعث هذه النهضة ، وأعني به نشأة الجامعات في العصور الوسطى .

إلى جانب ما رأيناه من ظهور طبقة رجال الأعمال نتيجة للتحسن المطرد في الإنتاج ووسائله من القرن العاشر إلى الثالث عشر ظهر أيضاً

أناس اشتغلوا بالقراءة والترجمة والدرس والتعليم فتألف منهم ما يسمى بـالإنتليجنسيـا أو المثقفين ، بعث على ظهـورهم اكتشـاف النصـوص اليونانية واللاتينية خلال الحروب الصليبية أو المعاملات التجارية ، عن طريق العرب أو عن طريق العلماء الهللينيين المنتشـرين في الشرق . ولذا كان أول مـا شغف به هؤلاء المثقفـون الذين آثـروا قراءة فـرجيل والقديس أو غسطين على قراءة سفر الجامعة هو الإنكباب على دراسة القدماء لا قطع الصلة بهم . فموقفهم قد عبر عنه أجمل تعبير برنار دي شارتر الذي أدار مدرسة شارتـر في القرن الثـاني عشر إذ قـال : « إننا أقزام تقف على أكتاف عمالقة . نرى ما لا يمتـد بصرهم إليـه ، ليس لأننا أحد نـظراً بل لأنهم يـرفعوننـا » . ومنه نـرى أن تسميتهم أنفسهم بالمحدثين كانت تصدر عما تبينوه من أن « الحقيقـة بنت الزمن » كمـا قال أيضاً برنار . ويكفي أن نتذكر نزوع الفكر الإنساني في كل مكـان وزمان إلى ربط الحقيقة بالقديم حتى نتبين مدى ما تنـطوي عليه هـذه العبارة من . . . . . . التجديد .

كان بين هؤلاء المثقفين فريق لم يتورع عن نقد البابوية لميلها إلى التحالف مع الأثرياء الجدد نقداً لاذعاً بلغ حد إتهامها بأنها قد جعلت اسم المسيح النقود ـ إشـارة إلى كلمة البـابا جـريجوار السـابع : « إن السيـد المسيـح لم يقـل : إن اسمي العـرف ، وإنمـا قـال : اسمي الحقيقة » . ولكنا إذا إقتصرنا على الاتجـاهات ذات الأثـر الدائم وإذا إتخذنا مدرسة شارتر نمـوذجاً للمـراكز العلميـة في القرن الثـاني عشر رأينـاها لا تغفـل دراسة « الفنـون الثلاثـة » ويراد بهـا النحو والبـلاغـة والمنطق ، إلا أنها آثرت على دراسة « الأصـوات » دراسة « الأشيـاء »

التي تعكف عليها « الفنون الأربعة » ويراد بها الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . هذا الإتجاه الذي غذاه العلم العربي اليوناني والذي إتسم بالطلعة والملاحظة والبحث قد سبك العبارة عنه هونوريوس المسمى بالأوتاني نسبة إلى مدينة أوتان بفرنسا (وهو أشهر من عملوا على إذاعة المنحى الجديد) إذ قال : « منفي الإنسان الجهل ، وموطنه العلم » .

هذا الطراز من المثقفين لم يكن ليترعرع إلا في المدن . لذا صب السلفيون لعناتهم على المثقفين والمدن معاً . في المدينة بدأ المثقف يعد نفسه رجلاً ذا مهنة لا اختلاف بينه وبين سائر أهل المدينة ، مهنته درس « الفنون الحرة » وتعليمها . فإذا سألته : وما الفن ؟ أجاب أنه تقنة (من اليوناني ، ومنه اليوم التقنية والتكنولوجيا) ، اختصاص يتميز به المعلم مثله مثل النجار أو الحداد . ومنه هذا التعريف ؛ الفن هو كل نشاط عقلي مستقيم يطبقه الذهن على صنع الأدوات المادية والثقافية . وأدى ذلك إلى الشعور بأن العلم لا يجب اكتنازه وحبسه بل تداوله وترويحه ، فالمدارس ورش بضائعها الأفكار . وإذا كان القرن الثالث عشر قد صار قرن الجامعات فإنه كان أيضاً قرن ما سميناه بالمتجسديات . فكلما وجدت بمدينة من المدن مهنة تضم عدداً كبيراً من الناس نظم هؤلاء صفوفهم دفاعاً عن مصالحهم وسعياً إلى الإحتكار . على هذا الغرار تكونت الجامعات من خلال التعامل بين المعلمين والطلبة ثم هؤلاء وسائر أهل المدينة وبينهم وبين السلطات المدنية والكنيسة . ومع ظهورها رويداً رويداً كقوة يعتد بها لعدد طلابها ومثقفيهم لم يكن بد من أن يقع صدام كان وضع القوانين يعقب فيه في أغلب الأحايين الوقائع ولم تخرج منه الجامعات منتصرة إلا بفضل

تمساكها وإصرارها . فمن المعلوم أن جامعة باريس مثلاً لم تحصل على استقلالها النهائي إلا بعد أحداث عام ١٢٢٩ الدامية التي استشهد فيها عدد من الطلبة فأعلن الإضراب الجزء الأعظم من أعضائها وانسحبوا إلى أورليان أما النشاط العلمي والفكري فقد بلغ حداً لم تعد معه الكتب المخطوطة موضوعاً كمالياً بل عدة للدراسة ، بحيث يمكن القول بأن الكتاب قد ولد بفضل الجامعات قبل أن تعيد المطبعة ولادته في عصر النهضة ، عصر « الولادة الثانية » كما يقال في اللغات الأوروبية .

ولكن مع طلوع القرن الرابع عشر بدأت بأوروبا السنوات العجاف التي دامت ما يزيد على القرن : الأوبئة ، توقف زيادة السكان ثم تناقصهم نتيجة للمجاعات ، ذوبان الفضة والذهب في الحروب التي لا تنتهي : حرب المائة عام وحرب الوردتين ، عدا الحروب الإسبانية والإيطالية . ونجم عن هذا أن صارت الأغلبية الساحقة من الإقطاعيين تفضل تحصيل ريع أراضيها نقداً لا عيناً . وزادت الهوة عمقاً بين ضحايا هذا التطور والمنتفعين منه ، وبخاصة في المدن حيث إنقلب معظم الحرفيين إلى إجراء معدمين لحقوا بصفوف الفلاحين ، بينما زاد كبار البورجوازيين ثراء باستغلالهم وبالتوسع في شراء الأراضي فامتزجوا بالطبقتين اللتين كانت لهما السيطرة حتى ذلك العهد : النبلاء والأساقفة . وساعد هذه الطبقات الثلاثة على تثبيت وضعها وسط الأزمات أن سارعت إلى سندها السلطة السياسية التي ظل همها الأول حتى عهد الثورة الفرنسية حماية ما سمي باسم « النظام القديم » . وكان العصر عصر تبلور القوميات وظهور الدول الوطنية من خلال تصارع الأمراء ، ملوكاً كانوا أو طغاة ، وهو الأمر الذي فهمه الأقوياء ،

فهموا أن العصر عصر **الأمير** فسارعوا إلى خدمته والإنخراط في وظائفه والإندماج في حاشيته كسباً للثراء والسلطة والجاه . وفي هذا المعترك بدأ يتقرض مثقف القرون الوسطى ليحل محله شخص جديد : المتأنس[1] .

ذلك أن السلطات الجامعية لم تتوان عن تجميد منح الطلبة وإعاناتهم رغم الغلاء المستمر دون أن تنسى رفع أسعار خدماتها ، سواء تعلقت بالمسكن والمأكل أو بالكتب والمعدات ورسوم التسجيل والتقدم للإمتحانات وطقوس التخرج ، إلخ ، مما صد عن الجامعة صفوة الطلبة الذين كانوا يقصدونها طلباً للعلم لا للمناصب . أضف إلى ذلك أن كثيراً من الجامعيين إتجهوا إلى من بيدهم المال يغدقونه في إنشاء الكليات التي لا يتسنى دخولها إلا لأبناء الخاصة . وفي النهاية تحولت الجامعات إلى مؤسسات أرستوقراطية : فالمتأنس أرستوقراطي . هذا عن الجامعة ، فماذا عن التعليم ؟ .

إستلهم متأنسوا القرن الخامس عشر إذ أخذوا في تعديل برامج التعليم الوسيط القائم على دراسة « الفنون الحرة » ، إستلهموا تصور شيشرون للخطيب بما هو الرجل الذي يتحقق فيه كمال الإنسان بالتمكن من مواضيع العدالة والحقوق والواجبات ودساتير الدول وطرق حكمها أي ، بالإختصار ، من الفلسفة العملية في جميع مجالها ، حتى ليصح القول أن الهدف من نهضتهم أو « بعثهم » إنما كان بعث

(١) من تأنس أي صار إنساناً . سيرى القارىء لم اخترنا هذه الترجمة . استخدمت الكلمة الأوروبية « هومانيست » للمرة الأولى عام ١٨٠٨ لمن تخصص في دراسة الآداب اليونانية واللاتينية ، لهذا جازت أيضاً ترجمتها بالمتأدب .

الطراز الشيشيروني . ومنه كان التعليم في المحل الأول دراسة لعلوم اللغة وهو ما يعني دراسة النصوص الخالدة التي هي بمثابة النموذج والقانون أو السنة . وكما أن النموذج كان في نظر روما خلال القرن الأول هو النصوص اليونانية كذلك وجد متأدبو عصر النهضة قانونهم في روائع النصوص اللاتينية أولاً ثم بعد سقوط القسطنطينية في يد الأتراك عام ١٤٥٣ وهجرة العلماء البيزنطيين إلى أوروبا في النصوص اليونانية ثانياً ، هذه النصوص التي اعتبروا أنفسهم ورثتها . فإذا كان عصر النهضة قد ظهرت فيه فجوة لم يكن لها وجود في العصر الوسيط بين « المتأدبين » و « التقنيين » فإننا ندين لهؤلاء المتأدبين الأخصائيين لا بإحياء اللغات القديمة فقط مع ما يتضمنه ذلك من كشف خفاياها ووضع قواعدها ومن التجديد الشامل في الدراسات الأدبية والنحوية والبلاغية وتعليمها ، بل ندين لهم أيضاً بالمناهج التي استنوها في نشر المخطوطات القديمة مع تصحيحها ومقارنتها وتحقيقها ـ وهو الأمر الذي كانت له أبعد الأصداء ، يكفي أن نذكر أن حركة الإصلاح الديني ما كان ليشتد ساعدها لولا المقارنة بين الترجمة اللاتينية المعتمدة من الكنيسة والأصل اليوناني الذي نشره أيراسم طباعة ١٥٠٥ للمرة الأولى . يبقى أن شيشرون نفسه في محاورته الخطيب لم يجد جواباً عن هذا السؤال : وكيف يؤدي التقعر في الآداب أو كيف يؤدي أي نوع نتخيله من التعليم إلى كمال الإنسان أو إلى تحليه بالفضيلة ؟ أو هو قد علق الإجابة بترك الأمر لما تغرسه الطبيعة في المتعلم من المواهب . ولهذا لم نكن نعجب إذا انتهى الأمر بأن إنفضحت هذه الإيديولوجية الشيشرونية وتكشفت الفكرة المستترة وراءها فصار محك التعليم نفعه

وصار هم الجامعات صراحة في القرن السادس عشر هو وضع البرامج والكتب المدرسية التي تؤهل أبناء الطبقة الارستوقراطية لشغل مناصب الدولة .

٢ - حياة المؤلف لابويسيه وأعماله

ولد لابويسيه بهذا القرن الذي بدأ ولما تنقضي بضعة أعوام على وصول كريستوفر كولومبوس إلى سواحل أمريكا (١٤٩٢) وفاسكو دي جاما إلى الهند (١٤٩٨)[1] . ولد في الأول من نوفمبر عام ١٥٣٠ بمدينة سارلا إلى الجنوب من ليموج وإلى الشرق من بوردو . ولا يزال بوسع السائح وهو يمر بشوارع هذه المدينة الصغيرة أن يعجب بجمال منازلها التي تشهد منذ القرن السادس عشر بالدعة والرخاء . ونعلم أن

(١) من المقطوع به أن الصين كان لها أسطول وصلت سفنه إلى سواحل أفريقية وكان لأميرالاته مشاريع تشبه مشاريع أقرانهم الأوروبيين ولكن الصين كانت إمبراطورية موحدة أي دولة لا ترى وجهاً لجمع المال إلا بتحصيل الضرائب والمكوس وترتكز إلى بيروقراطية متحجرة لا ترى في أمثال هذه المشاريع إلا مغامرات لا طائل من الأنفاق عليها ، بينما كانت أوروبا مسرحاً تتصارع فيه النظم السياسية على اختلافها وتتصارع فيها على احتكار الدول وتأسيسها ملوك كانوا هم أنفسهم كما قال أحد المؤرخين أول أصحاب المشاريع ، زاد شرههم للذهب بقدر استنزافهم له في الحروب . ويكاد يكون من المقطوع به أيضاً أن فاسكو دي جاما قد اعتمد في عبور المحيط الهندي على الملاحين العرب المنتشرين في أفريقيا دون أن ينتبه أحد إلى أن وصوله إلى الهند كان يعني النجاح في تطويق العالم الإسلامي .

الملوك وإن اختفى بـظهـورهم واشتـداد نفـوذهم الحلم القـديم حلم « المملكة المسيحية » ، قد استندوا مع ذلك في تقسيم المدن والأقاليم إلى تقسيمات الكنيسة وبدأوا بها ، فكانت سارلا من الوجهة الكنسية أبرشية وكانت من الوجهة المدنيـة تدخـل في عداد المتصـرفيات التي ينوب فيها عن الملك متصرف (بابي أوسنيشال) يؤدي باسمه الوظائف القضائية والإدارية . إلا أن هؤلاء المتصرفين الـذين كانـوا ينتمون إلى الطبقة الأرستوقراطية آثروا البقاء في حاشية الملك أو آثر الملك إبقاءهم في حاشيته فتركوا أعمالهم لنوابهم ، وكان أبو اتين دي لابويسيه أحد هؤلاء النواب . كان إذن مؤلفنا ينتمي إلى طبقة ميسورة مثقفة . إلا أن أباه أدركه القدر وهو طفل فتولى أمره عمه ، وكـان من رجال الكنيسـة المتضلعين في اللاهوت والآداب ، فنشأ اتين الذي بدأت معالم ذكائه الخارق تتبين وهو لما يبلغ العاشرة على تقديس « الإنسانيات » اليونانية واللاتينية . وساعد على محبته لها وتمـرسه بهـا أن حركـة النهضة قـد قـويت في سارلا بنـوع خاص إذ كـان أسقفها كـاردينال إيـطالي (هـو الكاردينال نيقولو جادّي) ربطت أواصر القرابة بينه وبين آل مـديسيس الفلورنسيين وانطبع تبحره بطابع المتأنس الإيطالي حتى أنه كان يحلم بأن يجعل من أسقفيته جمهورية للآداب والفنون مثلما كانت أثينا . في هذا الوسط الراقي الثقافة انكب لابويسيه على الدرس . ولا ندري على التحقيق بأي مدرسـة إلتحق ولكن الشيء المؤكد هـو أن أساتـذته قـد لمسوا من نجابته ما يؤهله للإلتحاق بالجامعة فوجهوه إليها . وكـان أن إلتحق بجامعة أورليان التي تشهد سجلاتها بـأن اتين دي لابويسيـه قد جـاءها لـدراسة القـانون تـأهباً لـلاشتغال . . . . لا بـل بالأدب ، بـل بالقضاء .

ولسنا نعجب لذلك كثيراً . فقد رأينا أن لابويسيه كان ينتسب إلى هـذه الشريحـة الاجتماعيـة التي كان يخـرج منها القـائمون بـالأعمال العامة ، ثم أن دراسة القانون نفسها كانت تصطنع منهجاً لا يختلف عن المنهج المتبع في دراسـة النصوص الأدبيـة ، وأعني به منهـج التفسير النقدي الذي لا يقف عند بيان الفروق بين المذاهب والإحاطة بها بل يتعـداهما إلى التفسيـر النحوي للصيـغ التشريعيـة وتحليل مـدلـولات الكلمات واستعمالاتها ثم الإستعانة بالتاريخ توضيحاً لمرادها . فدراسة القـانون كـدراسة الإنسـانيات كـانت في المحل الأول دراسـة لغـويـة فيلولـوجية (أي منصبـة على النصوص) تستمـد غذاءهـا من التفكيـر الفلسفي والبحث التـاريخي ومن إعمال النقـد والثقة بسلطان الحجـة والإستدلال . وكان هذا المنهج الذي يجعل من دراسـة القانـون جزءاً من الإنسانيات كـدراسة الشعـر والفلسفة هـو المنهج المتبـع فعلاً في جامعة أورليان التي كانت تعد ثانية جامعات فرنسا بعد جامعة باريس . وإذا كانت شهرة مدرسة القانون بها لا تعدل شهرة مدرسة بولونيا أو بادو بإيطاليا فقد كان لها أيضاً حظ وافر من أساتذة القانون الفطاحل ـ يكفي أن نذكر منهم كوجا الـذي لا يزال أحـد شوارع الحي الـلاتيني يحمل اسمـه حتى اليوم والـذي يرجـع إليه الفضـل في أن أعاد إلى القـانون الروماني المعنى الذي كان له في المجتمع الذي وضع فيـه . ويجدر بالذكر أيضاً أن كالڤن ، أعظم رجال الإصلاح الديني بعد لـوثر ، قـد درس بهـا بين ١٥٢٨ و ١٥٣٣ وأن عـدداً من زمـلاء لابـويسيـه بهـذه الجامعة وفي مقدمتهم هوتمان قد صاروا من مشاهير هذه الحركة . ولا غرو في ذلك لما نعلمه من إتفاق رجال الإصلاح والمتأنسين على هذه الدعوة : الرجوع إلى الأصول .

حصل لابويسيه على درجة الجامعة في ٢٣ سبتمبر عام ١٥٥٣ وحصل من الملك هنري الثاني على تصريح يبيح له شراء حق العمل قاضياً ببرلمان بوردو[1] قبل بلوغ السن القانونية (وهو الخامسة والعشرون) وبدأ ممارسة أعماله بها بعد الإمتحان في ١٧ مايو عام ١٥٥٤ . فلما جاء مُونْتَني ليعمل هو أيضاً قاضياً بهذه المحكمة عام ١٥٥٧ إنعقدت بين الرجلين الصداقة التي خلد مونتني ذكرها في مقالاته . ولسنا نعلم في أي المنازعات قضى لابويسيه أو مونتني ولكنا نعلم أن البرلمانات قد بدأت خلال القرن السادس عشر تشارك مشاركة ملحوظة في الحياة السياسية كان من جرائها أن إتخذ برلمان بوردو بإزاء مآسي الصراع الديني المتصاعدة في جنوب فرنسا الغربي موقفاً إتسم بالولاء للملكية وبالاستمساك بالعقيدة الكاثوليكية على السواء ، أدى بقضاته إلى اعتبار الهجْنُوت (وهو الاسم الذي أطلق على أشياع كالفن بفرنسا) هراطقة ، فأوقعوا بهم عقوبات ضارية بلغت الزج بهم إلى المحارق . ولكن المحارق لم تزد الحزازات الدينية إلا سعيراً . عندئذ أوفد لابويسيه إلى باريس في مهمة ظاهرها الإحتكام إلى مجلس الشوري الملكي في خلاف بين قضاة بوردو وسلطاتها البلدية ولكن باطنها كان أدق وأعمق .

---

(١) بلغ من احتياج الملك فرنسوا الأول إلى المال أنه جعل الحصول على المناصب بالشراء وإن لم يعف ذلك طالب الوظيفة من الامتحان . هذا وكانت كلمة البرلمان تطلق على المحكمة وكانت المحكمة نفسها مركباً قانونياً معقداً يضم عدة « غرف » يتميز شاغلو كل منها برداء خاص ، أولها وأعلاها مرتبة الغرفة الكبيرة ، أما الغرف التالية فكانت تنقسم ويتعدد كل قسم منها بحسب الاحتياجات كغرفة التحقيقات وغرفة العرائض ، الخ . هذا وكان الأعضاء

كان الملك في هذا الوقت ، ديسمبر ١٥٦٠ ، طفلاً في العاشرة .
وكان زمام الحكم بيد أمه كاترين دي ميديسيس وكان همّ هـذه المرأة الإيطالية الأول هو الحيلولة دون إنقلاب الصراع الديني إلى حرب أهلية تهدد النظام أو المُلك كله . لهذا كانت تستمع طواعية إلى النصح الذي كان يسديه إليها مستشارها ميشل دي لوبيتال الذي قام لابويسيه بزيارته في باريس . وكان الـرجلان على اختـلاف السن بينهما بمـا يبلغ ربع القرن قد جُعلا ليتفاهما : كلاهما ضليع في علوم القانون ، كـاره لرد القضاء إلى شكلياته ، متحمس للإنسانيات ، كما كان كلاهما مستقيم الخلق ، صادقاً في وطنيتـه . فكلف ميشيل دي لـوبيتال صـديقه بـأن يشرح لبرلمان بوردو الذي إنتصر أعضاؤه للفريق الكاثوليكي المتعصب سياسة التسامح الديني التي كان يدعو إليها . ونجح لابويسيه أول الأمر في مهمته حتى كاد ينعقـد لقاء وطني يضم رجـال الدين من الـطرفين ويمهد لإدراج سياسة التسامـح من مجال النصـح إلى حيز التشـريع .
ولكن وضوح تفكيره وواقعيته سرعان ما أقنعاه بأن سياسة التسامح آيلة إلى الإخفاق لتوالي أعمال العنف من الجانبين . ومع هذا لم يتردد حين ظهر مرسوم ١٧ يناير ١٥٦٢ القاضي بترك حرية العبادة لأشيـاع كالفن دون اعتبارهم هراطقة في أن يكتب مذكرة شرح فيها النتائج المنحوسة التي تنجم عن المنازعات الـدينية وبين بنـظر ثاقب كيف يؤدي الـردع الدموي لا إلى القضاء على الأعداء بل إلى تفاقم العداوة تفاقمـا يهدد البلاد بحرب أهلية تحرم الدولة من صفوة العقول ـ وأغلب الظن أنه كان

بعضهم من رجال الدين والبعض الآخر مدنيين ولكن الغلبة صارت للآخيرين مع مرور الزمن .

يفكر فيمن استشهد من أساتذته وأصدقائه . ثم لما بلغت المذابح مداها وضاق لابويسيه برفض بعض قضاة بوردو الإذعان لكل نصح بالمسالمة كما ضاق بالإنقسامات الدفينة التي تناهبت القصر الملكي نفسه كتب **مذكرة في قانون يناير ١٥٦٢** لم ينكر فيها الكاثوليكية بما هي دين للدولة إلا أنه دعا إلى « كاثوليكية مُستصلَحة » تترك مجالاً للتوافق بين الكاثوليك والبروتستانت .

بعد ذلك نزل به مرض لا نعلم هل كان الديسنتاريا أو الطاعون . فطلب نقله إلى أرض تملكها امرأته . ولكن الوهن ألجأه إلى النزول عند صديق كانت تصله بمونتني أواصر المصاهرة ، على بضع كيلومترات من بوردو . وفي ١٤ أغسطس أدرك دنو نهايته فكتب وصيته تاركاً مكتبته لمونتني عنواناً على صداقته . وفي ١٨ أغسطس لفظ نفسه الأخير ومونتني بجانبه .

لم يلبث مونتني أن نشر عام ١٥٨٠ ، مع الطبعة الأولى لكتابة الخالد **مقالات** ، أعمال صديقه الأدبية . وكانت قسمين : شعر نظمه في مقتبل العمر وترجمات عن المؤرخ اليوناني كسينوفون ، منها الفصول الستة الأولى من كتابه **الاقتصاديات** (وكانت تنسب إذ ذاك إلى أرسطو) وأخرى متعددة عن بلوتارك ، منها **قواعد الزواج ورسالة العزاء** التي كتبها بلوتارك إلى زوجته تعزية لها في وفاة إبنتيهما . تبين في هذه الترجمات ما وصفناه من ثقافة المتأنسين وتأدبهم الذي يتجلى في شروحهم وتعليقاتهم وفي حرصهم الصبور على إستعادة النصوص القديمة كاملة إستناداً إلى مخطوطات منقوصة أو محرفة في كثير من الأحايين . ولكن مونتني لم ينشر أعمال صديقه الأدبية لأنه رأى بها كما

قال « حياكة أدق وألطف من أن تخرج إلى الجو الخشن الثقيل الذي إتسم به هذا الفصل الفاسد » وهي عبارة تحوي إشارة إلى الصراع السافر الذي إنتهت إليه العلاقة بين حركة الإصلاح الديني وبين الدولة (أي الملكية) والذي تجاوز الحد الذي لا رجعة بعدة بمذبحة الهجنوت عام ١٥٧٢[1] . والراجح أن لابويسيه كان قد قرأ **مقال في العبودية المختارة** على بعض أقرانه بجامعة أورليان وأن بعضهم نسخوه ومنهم من كان أو صار من أشياع كالفن ، فأدرجوا في كتاباتهم ومنشوراتهم التأليبية المتعاقبة مع تصاعد العداء واستحكامه مقتبسات تطول أو تقصر من هذا المقال . وهذا هو ما يقوله مونتني صراحة في صدد مقال لابويسيه على التحديد : « لقد عدلت عن إنزال هذا العمل بهذا المحل لأني رأيته قد خرج إلى الضوء منذ ذلك الحين (أي منذ مات صديقه) ، ولغاية غير بريئة ، أخرجه الساعون إلى إشاعة الاضطراب بمدينتنا دون أن يتساءلوا أهم بذلك مصلحوها ومزجوه بكتابات أخرى من عجينهم » . والحق أنهم لم يقفوا عند مزجه بل هم كما يقول مونتني أيضاً « قد أعادوا تعميده فسموه **ضد الواحد** (كما نقول نحن **تهافته**) » . وبذا زجوا لابويسيه في زمرة الكتاب الذين أطلق عليهم اسم « أعداء الملوك » (مونارکوماك) وجعلوا من **مقال في العبودية المختارة** نصاً يستخدمه المجاهد السياسي لأغراضه ـ وأكاد أضيف : قبل أن يفهم غرضه . وربما كان هذا الشطط هو الذي دعا مونتني أن يهون بعض الشيء من مقال صديقه ، فقال : « وهو مقال

(١) وهي المذبحة المعروفة بليلة القديس بارتوليمي . بدأت بقرع النواقيس من كنيسة سان جرمان دُوكْسرّوا بباريس .

خلع عليه اسم **العبودية المختارة** ولكن من لا علم لهم بـذلك أعـادوا تعميده منذ ذلك الحين فسموه **تهافت الواحد** . كتبه على سبيل التمرين في مطلع شبابه إشادة بالحرية في وجه الطغيان »[1] . أما المراد بقوله « في مطلع شبابه » فهو الثامن عشر (أي عام ١٥٤٨) بحسب الطبعات الأولى من المقالات وفي طبعة ظهرت عام ١٥٩٣ وفقاً لتصحيح بيد مونتني السادسة عشر ـ أي عام ١٥٤٦ . فبأي التاريخين نأخذ ؟ .

كـانت الوحـدة السكنية في الـريف هي القـريـة التي خلق أهلهـا ليعملوا في الأرض المحيـطة بهم دون أن يملكـوهـا وليعبـدوا الله في الكنيسة المشيدة وسطها . لذا كانت القـرية من حيث هي جمـاعة من الناس يتشاركون العمل في الأمور التي تخصهم جميعاً (كتعبيد طريق أو بناء جسر أو فض نزاع أو تحديد الأرض المشتركـة للرعي أو إتخاذ موقف مشترك إزاء مطلب جديد للنبيل إلـخ .) ، كانت تسمى بـاسم **المشتركية** (كُومين) كما كانت تسمى من وجهة الإدارة الكنسية أو بما هي خلية روحية بالأبرشية[2] . وكان النبيل يمتلك الأرض وما عليها ، يملك ما حلق في سمائها من الطير وما شقها من الطرق والأنهار ، وكان يقتطع أجزاء من هذه الأرض لمن وهب نفسه لخدمته بسيفه من الفرسان

---

(١) مونتني ، مقالات ، الكتـاب الأول ، الفصل ٢٨ . والمـراد بالـواحد هنـا هو الملك لأن الكلمة الأوروبية (مونارك) التي تترجم بالملك مشتقة من كلمتين يونانيتين تعنيان « حكم الواحد » .

(٢) ويل للبلاد التي خيم عليهـا سلطان الدولـة قبل أن تخـوض شعوبهـا ـ لعوائق جغرافية وتاريخية ـ مثل هذه التجربة في التضامن على المصالح التي عرفتهـا أوروبا في شكل المتجسديات في المدن والمشتركيات في الريف .

وإن غلب أن يكون ذلك في صورة الحيازة لا التمليك . أما الفلاحون فكانوا يعملون في خدمة النبلاء والفرسان بمحاريثهم ومناجلهم ، يعيشون بما يبقى لهم من المحصول بعد أن يأخذ هؤلاء حصتهم ، وحتى هذا المتبقى كانت تثقله شتى الضرائب المباشرة وغير المباشرة . لهذا إزدحم تاريخ العصور الوسطى بالثورات الشعبية (بالمعنى الذي لا تعني فيه كلمة الشعب أهل البلد كله بل المستضعفين منهم) التي إنتشرت في أوروبا خلال الفترة بين ١٣٣٠ و ١٤٢٠ بنوع خاص حتى صار لكلمة « المشتركية » معنيان معنى الوحدة الإدارية ومعنى الثورة أو الإنتفاضة . وكان أهم هذه الثورات وأشهرها الثورة التي وقعت في المنطقة التي تقع فيها باريس (إيل دي فرانس) والتي عرفت باسم صار يطلق بعد ذلك على جميع هذه الثورات : جاكري (نسبة إلى جاك وهو أكثر الأسماء شعبية) . وفي عام ١٥٤٨ أي حين كان لابويسيه في الثامنة عشرة من عمره إندلعت في لاجوين (وهي الإقليم الذي نشأ فيه مؤلفنا وعمل قاضياً بعاصمته بوردو) ثورة إجتاحت جنوب فرنسا كله . ثورة كانت لا تختلف من حيث وصفها عن سابقاتها ، فهي أيضاً كانت « جاكري » ولكنها من حيث دلالتها قد ألفت حدثاً جديداً كل الجدة ، بدأت به صفحة جديدة في تاريخ ثورات الفلاحين بأوروبا ، صفحة لم تنته إلا بإنتهاء الحياة القروية نفسها في شكلها المعهود ، مع تقدم المدنية الصناعية خلال القرن التاسع عشر . ذلك أنها كانت تختلف عن سابقاتها من وجهين :

١ ـ لم تكن مقصورة على الفلاحين وحدهم بل إنضم إليهم بعض أهل المدن الذين مكنهم ثراءهم من شراء الأرض والاشتغال بزراعتها .

٢ ـ لم تكن ثورة على نبيل أو عـدد من النبلاء بـل ثورة في وجـه الدولة . فقد فرض الملك فرانسوا الأول عام ١٥٤١ ضريبة على الملح وهي ضرورة حيوية لحاجة الفلاحين إليـه لتجفيف اللحوم تهيؤاً للشتـاء، فبدأت هنا وهناك حركات من التمرد إستفحلت استفحالاً شمل المنطقة كلها عام ١٥٤٨ . فلم يكتف الفلاحون بطرد جباة الملح الممقوتين بل تعقبـوهم إلى المدن حيث ديـارهم ومراكـز عملهم فحاصـروا بعضهـا واستولوا على البعض الآخـر بينه مـدينة بـوردو نفسها . وهنـاك أوقعوا المـوت بكل من رأوه من الجبـاة أو توهمـوا أنه منهم . ثم بعـد ذلـك إجتمعت حشودهم ببعض المنازل الفسيحـة أو بالميـادين العامـة كيما يحرروا عرائض إلى الملك (وكان إذ ذاك هنري الثاني) وكلفوا بعض الأعيان سواء شاؤوا أو لم يشاؤوا بـرفعها إلى جـلالته . فكـان الرد وعـداً برفع شكاوي رعاياه إكتفوا به فتفرقوا . وفعلاً رفعت الضريبة في سبتمبر عام ١٥٤٩ . ولكن بعد أن أرسل إليهم الملك جيشاً رادعاً نشر الرعب في الإقليم ونكل بأهله شر تنكيل : حلُ برلمان بوردو وتسريحُ قضـاته وإلغاء إمتيازات ولا نتحدث عن الإرهاب الدموي فقد بلغ من قتلوا على سبيـل «التأديب» مئـة وخمسين رجلاً . ومنـه تتضح الحـدود التي تحـرك في نطاقها المتمردون . فهم لا يفكرون في المساس بسلطة الملك بل يحتكمون إليه : فالملك « أمير » وعادل ، إنه يجهل محن الشعب التي يخفيها عنه وزراء السوء ، فأمـا هم فما إجتمعـوا وتسلحوا إلا بمشيئـة الله ، وما مقتوا إلا الجباة العاتين ، وما كرهـوا ضريبـة الملح إلا لأنها « بدعة » . فالأحداث قد دارت وكأن ثـوارنا كـان يصلهم حبل سـري بمثل أعلى من الطيبة والرحمة لا يتوقعون منه إلا العدل والمحبة ، فإن كذّب الواقع توقعهم آثروا تكذيب الواقع والإمساك بمثلهم الأعلى . ولا

شك أن لابويسيه قد تابع هذه الأحداث وأن هذه الظاهرة قد إستوقفته : أن نرى شعباً بأسره (الشعب الذي ينتمي إليه هو نفسه) ينزّه عن القسوة من تقع بأمره أقصى القسوة ؟ وأقـول لا شك لأنـه ذكر هـذه الظاهـرة صراحة وإن خلا مقاله من كل إشارة إلى الأحداث التي أملت سؤاله . ولا أشك إذن في أن لابويسيه قد كتب **العبودية المختارة** وهو في الثامنة عشـرة من عمره بعـد ثورة الفـلاحين لا تعبيراً عن سخـطه على منطق الدولة بما هو منطق العدالة الإرهابية بل لأن إخفاق هذه الثورة قد جعله يلمس شيئـاً من حدود المشـروع الثوري . ـ أهـذا كـل مـا نسـتطيع قوله ؟ .

إن **العبودية المختارة** نص حلق كاتبه في آفاق البلاغة تحليقاً جعل سانت بيف لا يرى فيه إلا نموذجاً لامعاً لمـا يكتبه الـطالب النابـغ في فصل البلاغة . ومعنى هذا الرأي أن النص المذكور غير ذي موضوع أو بالأدق أن الموضوع فيه ليس إلا مناسبة يستغلها الطالب ليبـدي تمكنه ممـا تعلمه على مقـاعد الـدرس . غير أن سـانت بيف هذا كـان مثالاً فاضحاً على ما كان يسمى بالناقد الأدبي أي رجلاً همـه الأول الحكم والقضاء على ما يقرأ ـ لأن الحكم والقضاء يضفيان الجاه ـ لا أن يتفهم ويتعلم . ولكننا سوف نرى أن هذا التحليق البـلاغي إنما كـان أحسن السبل التي توسل بها الكاتب ـ وتلك ثقافة وثقافة قارئه ـ إلى تصوير ما لمسه من الواقع . وأعني بذلك أن لابويسيه ينم فكره عن واقعية ندر أن تتحقق ، ولا يخلو تحققها لدى شـاب في الثامنـة عشرة من الغـرابة . لهذا كنت أرجح أنه إنما رمي الرمية الأولى وهو بهذا السن ولكنه لم ينته من الاشتغال بالمقال إلا في سنى دراسته بجامعة أورليان بين ١٥٥٣ و

١٥٥٥ مستعيناً بمناقشاته مع أقرانه ، إذ بالمناقشة تتبين الأفكار وإن لم تتفق ، وبما اكتسبه من الإحاطة بعلوم القانون والتاريخ على يد أساتذته . هذا عن تاريخ كتابة هذا المقال ، ننتقل الآن إلى الحديث عن مصيره .

٣ - المقال في العبودية المختارة، طبعاته والآراء في صدده

رأينا كيف صار مقال لابويسيه سلاحاً في يد مناهضي الملكية . فلما إستتب هذا النوع من الحكم واستتبت قواعد الدولة في خلال القرن السابع عشر صار المقال نصاً نادراً لا يسعى إليه إلا القلة من القراء الذين تصدر طلعتهم عن ذكائهم الشخصي . ولكن **مقالات** مونتني ظهرت لها طبعة جديدة عام ١٧٢٧ أشرف عليها بيير كوست **فأدرج** فيها عدا أعمال لابويسيه الشعرية **المقال في العبودية المختارة** ، فكانت هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها هذا العمل مصحوباً باسم مؤلفه ـ بعد مئة وأربعة وستين عاماً من وفاته . بعدئذ عاد **المقال** يتكرر ظهوره مع كل طبعة من طبعات **المقالات** لمونتني وبذا أيضاً ظل جزءاً منها لا استقلال له عنها . وبقي الأمر كذلك إلى أن أخذت ريح الثورة تهب من جديد في نهاية القرن الثامن عشر فعاد **المقال** إلى الظهور في كتابات ومنشورات شتى وفي صور مختلفة . مثال ذلك أن **أغلال العبودية** الذي أخرجه مارا في طبعة جديدة بباريس عام ١٧٩٢ بعد طبعته الأولى بلندن عام ١٧٧٤ قد حوى صفحات متعددة بدت مستوردة من العبودية المختارة حتى أن البعض تحدث عن « السرقة الأدبية » . ذلك كان قدر **العبودية المختارة** : يظهر بظهور الإضطرابات ويمر

بمرورها أو يبقى كأثر من آثار الأدب والوفاء .

ولكن الأمور إختلفت كلية عام ١٨٣٥ إذ قام لامنيه للمرة الأولى بنشر مقال لابويسيه على حدة في طبعة أدرج بها هوامش بيير لاكوست وكتب لها مقدمة هامة . كان لامنيه قساً وفيلسوفاً أرهقته أحداث عام ١٨٣١ الذي شهد إنتفاضة شعب بولونيا الكاثوليكي في وجه القيصر وأحداث عام ١٨٣٥ الذي إنتشر فيه الصراع الاجتماعي من باريس إلى المدن العمالية مثل ليون مؤدياً إلى وقوف العمال في وجه الدولة . فكانت النتيجة التي انتهى إليها في صحيفته **المستقبل** التي جعل شعارها **الله والحرية** وفي العديد من كتبه هي أنه لا قيام للضمير المسيحي إلا بالحرية وأن المسيحي يحق له أن يرفض طاعة الطغيان سواء كان روحياً أو زمنياً وسواء صدر عن الدولة أو عن القوى الاقتصادية . ويسعنا أن نتبين ماذا كانت من خلال هذا المنظار ـ وأود لو قلت : من خلال هذا المنظار الأَنَوي ـ رؤية لامنيه لمؤلف **المقال في العبودية المختارة** : رجل رأى في الحرية حقاً طبيعياً أو بالأدق حقاً لأنها طبيعة ، طبيعتنا التي جبلنا عليها ، وامتلأ قلبه حباً لها ، أما بغضه للطغيان فإن هو إلا الوجه الآخر لهذا الحب . وهنا يستعرض لامنيه شرح لابويسيه للوسائل التي يتذرع بها الطغاة في خداع الشعوب واقفاً بنوع خاص عند التضليل بالدين فيقول : « لما كان النظام ضرورياً للمجتمع فقد انتهى البعض من ذلك إلى أن عضواً واحداً من أعضاء المجتمع قد اختاره الله لحفظه وأنه ما أن يحل بالمكان الذي أختير له حتى تصبح مقاومته ، أياً كان ومهما صنع ، مقاومة لله نفسه : نظرية ملحدة ، نتيجتها المحتومة سوق الشعوب إلى آخر درجات البله أو

مجانية التقوى ، وفي الشائع إلى النتيجتين معاً » . ثم يختتم لامنيه مقدمته مبشراً الشعوب بالانتصار المحقق للحرية على الطغيان . وهي بشرى أقل ما يمكن أن نقول عنها هو أن لابويسيه ما كان إلا ليتردد كثيراً في زفها إلى الشعوب . أعني أن بهذه الخاتمة ينكشف الفرق بين الرجلين : المؤلف وناشره . فلامنيه لا يرى بين الحرية والطغيان إلا هذا التناقض المحض المرسوم بين اللفظين اللذين تزود بهما المرءَ اللغةُ التي يدرج عليها ، ثم هو بعدئذ يدخر محبتهِ للحرية وكراهية للطغيان ، فالحرية والطغيان موضوعان منفصلان لا خلط بينهما ولا مزج ، وإن يكن مزج فبين ما يستقطبان من المشاعر من حيث يمكن اعتبار أن هذا البغض (للطغيان) إن هو إلا هذا الحب (للحرية) أو على الأقل هكذا يطيب تصور الأمور لضمير أو وعي مسيحي ، فضلاً عن قس ؛ أما لابويسيه ، فما أملى مقالَه بغضُه للطغيان سواء كان هذا البغض بغضاً صراحاً أو حباً في جوهره ، ولو كان ذلك دافعه لما كتب كتاباً باقياً بل لسب وأقذع . وإنما أملاه ـ كما ستتبينه فيما بعد ـ أنه قد رأى الطغيان : أعني هذه الرؤية العقلية التي تنفذ إلى ما وراء جدار الأضداد الذي تحبسنا اللغة في قفصه الحرية والطغيان ، الأنا والآخر ، الخير والشر ، الرجل والمرأة ، إلخ . لتُمسك بالواقع . فإذا كانت هذه الرؤية هي ما يسميه المنطق تصوراً جاز القول أن « العبودية المختارة » ليست تعبيراً لفظياً بل تصوراً يكشف أو بالأدق يستبق الكشف عما بين المستعبَد والمستعبِد من رباط دفين وراء تناقضهما الظاهر .

وأياً كان الأمر ، سواء أدرك لامنيه مغزى النص الذي نشره أو لم يدركه ، فقد كانت نشرته هذه بدء صفحة جديدة : توالت طبعات

لابويسيه إلى يومنا هذا ، بعضها لأعماله كاملة والبعض الآخر لأعماله السياسية وحدها واقتصر الكثير منها على المقال في **العبودية المختارة** . وكثرت بمحاذاة ذلك الشروح والتفسيرات كما كثر الجدل بين الشـراح والمفسرين . ولست أرى هنا داعياً إلى حصر هذا كله خاصة وأني أذكر في قـائمة المـراجع أحـدث نشـرتين لهـذا النص سـوف يجـد فيهمـا المستزيد كل ما يبتغي في هذا الصدد . وإنما أكتفي بذكر بعض الآراء التي سـوف يعيننا نقـدها على تحـديد المسـار الصحيح حين نعـرض لقراءته[1] .

لم تلبث مقدمة لامنيه أن أثارت على صفحات **المجلة الاجتماعية** عام ١٨٤٧ نقداً محكماً سدده إليه وإلى لابويسيه معاً بييـر لورو وكـان أيضاً من الرجـال الذين ينـظرون إلى مستقبل أحسن ولكن من منـطلق الإشتراكية لا الـدين . مؤدى هذا النقـد هو أن مؤلف **تهـافت الواحـد** (وهو العنوان الذي رأينا أن أنصار الإصلاح الديني قد أضافوه إلى مقال لابويسيه للأسباب التي سبق بيانها) لو أنه أراد أن يكون تهافته هذا هو التهافت الحقيقي للواحد لوجب عليه « أن يخبـرنا كيف كـان يستطيـع الناس الإستغناء عن الأسياد ، كيف كان يمكنهم أن يعيشوا فيما بينهم وأن يكونوا من أنفسهم مجتمعاً دون أن يكون بعضهم سادة على البعض الآخر ، دون سيطرة ، دون أمر ، دون تمايز بين الأعلين والأسفلين .

---

(١) على سبيل المثال لا أرى داعياً للوقوف عند الرأي القائل بـأن لابويسيـه كتب مقاله رداً على ماكيافللي « نصيـر الطغيـان » وهو رأي أن دل على شيء فعلى الجهل المطبق بماكيافللي .

ولكن لما كان المؤلف يبدأ من هذا المبدأ ، أننا جميعاً متساوون ، دون أن يبين بأي شكل من الأشكال ما هي السبيل إلى إقتلاع جذر الطغيان فقد نجم عن ذلك أن إستخدامه لهذا المبدأ ضد الموناركية إنما هو في صميمه مغالطة » . هذا النقد ربما جاز توجيهه إلى لامنيه ولكنه لا يتناول مؤلف **العبودية المختارة** . ويحتاج بيان ذلك إلى الإشارة إلى أن الكلمة الفرنسية التي ترجمناها في الفقرة المقتبسة للتو بلفظ « السيد » تشمل معاني متعددة يستغرق شرحها خمس صفحات كاملة من قاموس ليتريه ولكنها تنقسم بالإجمال قسمين :

١ ـ فهي من ناحية تعني السيد بالمعنى الذي ضده الخادم أو التابع أو العبد ومن ثم تطلق على كل من تمتع بسلطة تخول له أن يأمر غيره ، سواء أكان مردها الملك فيقال سيد البيت أو الأرض أو العمل أو الدابة أي ربها وصاحبها ، أو العرف السياسي فيقال عن الحكام والرؤساء من كل نوع وصنف أنهم سادة قومهم ، أو العرف الديني كأن يقال عن المسيح أنه سيد الملوك ثم هي من ناحية أخرى تعني الأستاذ أو المعلم ومن ثمة كانت تطلق على كل من كان ثقة أو حجة في مجاله ، يستمع إليه دون أن يكون سماعه عبودية بل طاعة مختارة . ولا أظن أن لابويسيه كان يرى تعارضاً ما بين الحرية التي كان يؤمن بها وبين « السيادة » بهذا المعنى الثاني ولا هو كان ينكر أن كل مجتمع يقتضي أن يتولى حكمه بعض أفراده كما أن لكل سفينة ربان . ولكن سؤال لابويسيه هو : لمَ كانت مهنة الحكم هذه تجلب معها في كل زمان ومكان إنزلاق السيادة إلى المعنى الأول ؟ لقد اختتم بيير لورو مقاله مؤكداً إيمانه بأن « التهافت الحقيقي للواحد » آت عن قريب وأظنه كان

يلمح إلى الإشتراكية . أتراه يقول اليوم أن سؤال لابويسيه قد وجد جوابه أم هو زاد حدةً وإلحاحاً ؟ .

لقد غلب على شراح القرن التاسع عشر أن يقرأوا في مقال لابويسيه مشروعهم هم السياسي والاجتماعي فلم يعد للرجل وجود إلا في المرآة التي ظنوا أنهم يرون فيها ما وراءهم . ولقد يكون ذلك أمراً محتوماً ، ربما لم يكن مفر من أن يعرب شرح الشارح المتأخر عن مشروع الحقبة التي يعيش فيها أكثر فيها أكثر مما يعرب عن فكر المؤلف ، ولكن ذلك لا يمنع الالتزام بالنص والاحتكام إليه . وأقوى مثال على ذلك هو أوجست فيرومورل الذي ذهب في مقدمته لكتيب لابويسيه عام ١٨٦٣ إلى أن جعل من مؤلفنا أول المبشرين بفكرة الأعلوية الشعبية (الشعب مصدر السلطات) . لينس القارىء ما ذكرناه عن ظهور هذه الفكرة ابان العصور الوسطى وليقرأ مقال لابويسيه : لسوف يرى أن المؤلف أبعد ما يكون عن المطالبة بحقوق السيادة سواء للشعب أو لغيره من الطبقات وأنه حين يتحدث عن الشعب وهو يفكر في سكان المدن لا تخرج كلمة الشعب عنده عن أن تكون مرادفاً للغوغاء . ولا يعني ذلك بطبيعة الحال أنه قد نسي من كانوا يسمون بالحفاة أي الفلاحين الذين رأينا أي صدى تركته ثورتهم في نفسه : لا المطالبة بسيادتهم بل سؤال تمكن صياغته مرة أخرى على النحو الآتي : إذا كانت السياسة هي اقتسام القوة كما قال البعض (وأظنه تيت ـ ليف) فكيف تأتي أن ينزل « الحفاة » وهم الأغلبية الساحقة عن أخذ حظهم منها ؟ لقد يقول القارىء : « لقد عملوا على أخذها ، دليل ذلك ثورتهم ! » ولكنا بينا أن ثورتهم هذه كانت ثورة محافظة وأن مثاليتهم

كانت حنيناً إلى الماضي واسترجاعاً له لا نظراً إلى مستقبل يصبحون فيه قوة لها مشاركتها في القرارات التي تمس حياتهم ، كالسلم والحرب أو جمع الأموال وصرفها . وهنا أسمع القارىء يقول : « نعم ، ولكن سؤال لابويسيه يفقد وجاهته ويبطل اشكاله إذا نظرنا إلى الطبقات البورجوازية والعمالية التي نعرف نجاح ثوراتها . » والرد على ذلك يقتض ملاحظتين :

الأولى : هي أنه ما من ثورة تقوم إلا حين تعجز الدولة عن القيام بأعبائها في الداخل والخارج وأن كل ثورة تؤدي لا إلى تخفيف نفوذ الدولة بل إلى دعمه وتقويته ، ولا تخرج الثورتان الفرنسية والروسية عن هذه القاعدة .

الثانية : هي أنه ما من دولة يمكن ردها إلى كونها مجرد أداة في يد طبقة من الطبقات ، فالدولة بما هي الأعلوية المدعمة بقوة الردع لا تقوم لها قائمة بدون التواريخ والأعياد والأنصبة التذكارية والأبنية الأثرية وبدون الطقوس (كأداء القسم أو افتتاح البرلمان) والرموز (كالعلم) التي يرى فيها الجميع أنفسهم كائناً واحداً يسعدون به حتى أنهم يموتون طواعية من أجله . هذا النزوع الانساني الجارف أو هذا الحلم بوحدة لا تعريف لها بالمنافع هو الذي أدى اغفاله إلى توقع أن يؤدي وعي العمال باستغلال الرأسماليين لهم إلى تضامنهم الدولي . ونعلم اليوم أين نحن من هذا التوقع ، هذا من جهة ، ثم إنا نعلم من جهة أخرى أن ما يسمى باستقلال طبقة بالحكم لا يمنع استقلال الحكم عنها بل تزيد وطأة

الدولة بمقدار تفردها بالقوة . وخلاصة القول هي أننا ننتهي في هذه الفقرة إلى ما ألمحنا إليه في ختام الفقرة السابقة ، ألا وهو أن عصرنا كان بمثابة تجربة معملية أدت إلى التفرقة بين هاتين المشكلتين : مشكلة الاستغلال من جانب ومشكلة السيادة من الجانب الآخر . ولما كانت هذه المشكلة الأخيرة هي التي أراد لابويسيه معالجتها فلا غرو أن راج الاهتمام به اليوم أكثر منه في أي وقت مضى . لهذا نختتم هذا الجزء من مقدمتنا بذكر رأيين معاصرين في **العبودية المختارة**

يقول « آبنسور في مقدمة الطبعة التي أشرف على اخراجها عام ١٩٧٦ أن العبودية المختارة لغز ، لغز يكمن (كما رأيناه بصدد ثورة الغلاحين) في أن طلب القوة يتولد في ذات اللحظة التي تندلع فيها مناهضة القوة وإن كل رأي يسجن لابويسيه في صورة المنادي بالحرية أو بسيادة الشعب وكذلك كل محاولة تريد فك هذا اللغز بالدوافع النفسية أو بالشروح الوضعية إنما هي محاولة لتصفية هذا اللغز الذي يستمسك به لابويسيه اعراباً عن رفضه . أي رفض ؟ هنا يأتي إجابة عن هذا السؤال رأى آبنسور في ثورة ١٥٤٨ الذي لا يفهم إلا في ضوء رأيه في الدولة الحديثة : « لقد خلقت الامبراطوريات القديمة من الصين إلى جبال الانديز ماكينات دولتية[1] أزيد قدرة على السحق بما لا يقارن من تلك التي أفرزتها المונاركيات الأوروبية في القرن ١٦ . ولكن هذا

(١) أستخدمه صفة مشتقة من الدولة تمييزاً من « دولية » .

الجهاز البروقراطي الذي ينبني على رأس المجتمع يترك عند القاعدة عالماً يظل بمنأى عن الدولة لا بل عالماً يسبق بكثير من سماته ظهور الدولة نفسها . أما مطمح الدولة الحديثة كما تتبين قواعدها الثابتة في أوروبا القرن ١٦ فشيء مختلف كل الاختلاف . إنها تطمح إلى مراقبة المجتمع من أعلى وعن بعد كيما تستخرج منه الفائض الاقتصادي بل إلى النفاذ الحرفي إلى خلياته والدخول في أدق مفاصله والسيطرة على أبطن تروسه . الضبط ، التقنين ، مراجعة التعريف ، التغيير ، التحديث . . . ومنه كسر تلك القاعدة أو تلك النواة الباقية منذ أقدم العهود والتي لا تزال تحوى أنماطاً من الفكر عريقة في القدم ، وأعمالاً تتكرر منذ آلاف السنين وتحوي بالأخص حكومة مقصورة على المشتركية الصغيرة في مجهودها المستمر من أجل أن تدرأ بفضل استمساكها بالعرف دخول الفرق فيها بين الحاكمين والمحكومين » .
فإذا انتقلنا الآن إلى ثورة الفلاحين رأينا أن ما كان هؤلاء يخشونه وراء ضريبة الملح ووراء الضغط الإداري إنما كان هذه **البدعة** : هذه الدولة الجديدة التي أحسوا أنها لن تتوقف عن انتاج الجديد إلى غير حد . صحيح أن عدم مساسهم بالحكم الملكي يدل على حدود انتفاضتهم ولكنه يشير أيضاً إلى هدفها الحق . فسخطهم إنما كان يتجه إلى هذه الصورة الجديدة من صور السيادة ، إلى هذا القهر الخفي ، القريب ، المحدد وليس إلى شخص الملك بما له من جاه سحري لكنه غير ملموس الأثر في حياتهم اليومية . إنهم كانوا يعلمون ، هم ، أن الملك ليس الدولة . وهذه الدولة هي ما كانت ثورتهم تعرب عن **رفضه** . كانوا يعلمون . . . . لكن دون أن يكونوا بمحل يتيح لهم إخراج هذا العلم إلى الكلم . وهذا العلم غير المعلوم هو بالتحديد ما وجد العبارة عنه

لدى لابويسيه . لقد اختار لابويسيه الرفض ، اختار هذا الرفض الذي يملي علينا أن نتمعن فكرة الحرية في وجه القوة أو السلطان . ـ لا أظن أن هذا الرأي يحتاج إلى تعليق طويل يكفي أن نقول أنه إذا كان التسرع في حل الألغاز أمراً في متناول « أصغر أوديب يفد على الطريق » كما يقول آبنسور فليس معنى ذلك أن الإبقاء عليها بطولة بالضرورة . ثم أنه إذا كان تفسير الحاضر بالماضي خطأ من حيث ينكر الجديد فتفسيره بعلم المستقبل (ولو وصفناه بالعلم اللا معلوم) أشبه بوضع الأرنب في القبعة لإخراجه منها بعد ذلك . ثم ما معنى هذا « الرفض الكبير » في مواجهة القوة إذا لم يمل علينا أن نقول شيئاً مع لابويسيه عن علاقتنا بهذه القوة ؟

أما الرأي الآخر ، وهو لأستاذة جامعية قامت أيضاً بنشر **المقال** عام ١٩٨٣ : سيمون جويار ـ فابر ، فيميل إلى وضع لابويسيه على الطريق المؤدي إلى روسو وكانط أي إلى تخليص نظرية الدولة من سندها اللاهوتية . فهي ترى تحت عنوان **الحدس العقدي** أنه لما كان الطاغية لا تقوم له قائمة بحسب لابويسيه إلا بانصياع الشعب له فإن « حرية الشعب ينبغي البحث عنها في الميثاق الضمني الذي يربطه بالأمير » . أما كيف تخرج هذه النتيجة من تلك المقدمة فهو ما تشرحه على النحو الآتي : « ما دام الحائز على القوة محتاجاً إلى تولية الشعب وتأييده فالحرية تظهر بما هي مبدأ السلطة السياسية ، هذا من جهة ، ثم من الجهة الأخرى ، وعلى سبيل المقابلة فإنه يكفي أن يرفض الشعب قبوله وتأييده للأمير الحانث أو اللا مستحق كيما يفقد هذا الأخير كل قوة فيتحقق الخلاص لرعاياه » . أي أنها تشرح استخراج النتيجة العقدية

من مقدمة لابـويسيه بـإعادة شـرح النتيجة ! ثم هي تستخـرج من هذه النتيجـة نتيجة أخـرى مؤداها أن لابـويسيه لا يؤثـر بـالضـرورة الحكم الجمهـوري بل هي لا تشـك فيما تقـرأه في حياتـه من الـولاء للنـظام الملكي ، ولكنه كان في طليعـة من بينوا أن النـظام الملكي ليس كله حقوقاً بل تكليفاً من الشعب تترتب عليه واجبات . ولهذه ، في رأيها ، « فكـرة جديـدة قاطعـة » . كان رجـال القانـون والفلاسفـة في العصر الوسيط لم يستفيضوا الحديث في مناقشة الصيغة الرومانية المعروفة : « الملك في حل من القوانين » ليكتفوا بهذه الاضافة : « ولكن يقيده العقل » ، وكأن فكرة السيادة أو الأعلوية الشعبية نفسها لا تعود إلى هذا العصر . يبقى أن من الصحيح أن سلطة الشعب هذه ما كان يتصورها مفكرو القرون الوسطى إلا على أنها من سلطة الله . لذا بعد أن نسبت الكاتبة إلى لابويسيه فضل السبق إلى فكر مهد الطريق لإدخـال حقوق الشعب في حيز التشريع فإنها تنسب إليه الآن فضـل السبق إلى إدراك التنافر بين فكر العصر الوسيط وبين مقتضيات الدولة الحديثة . ومعنى هذا الفضل الجديد أن لابويسيه ـ وإن كانت الكاتبة لا تشك مطلقاً في صدق ايمانه بالله ـ قد رفع مع ذلك يد الله عن مجال السياسة ما دامت السلطة مؤسسة على العقد وما دام الناس بذلك صناعاً لحـريتهم . أما كيف يصنعـون عبوديتهم فقضيـة نسبتها الكـاتبـة منـذ أن جعلت منهـا المقدمة التي استخرجت منها « الحدس العقدي » . ـ وخلاصة الكلام هي أن الـرأيين الذين فـرغنا من عـرضهما يختلفـان إختلافـاً يبلغ حد التناقض . فآبنســور يقرأ في مقـال **العبوديـة المختارة** رفض لابـويسيه المـطلق للدولة الحـديثة بمـا هي ماكينـة ساحقـة لا تترك للجمـاعات الانسانية مهما بعدت عن المركز أقـل حريـة أو استقلال في تصـريف

أمورها بنفسها بينما تجعل سيمون جـويار ـ فـابر من لابـويسيه أول من صاغوا نظرية الدولة الحديثة صياغة تحفظ للانسان كرامته . يبقى أنـه إذا كان الأول قد أمسك بسؤال لابويسيه تمسكاً فـرغه من كـل محتوى لترفعه عن كـل جواب فـإن الثانيـة قد ألقت عن كـاهلها عبء السؤال نفسه .

٤ - إشارات في قراءة المقال في العبودية المختارة

أختتم هذه المقدمة ببعض التنبيهات التي لا بد منها لفهم سؤال لابويسيه فهما صحيحاً ومتابعة أسلوبه في معالجته .

يبدأ المقال دون تمهيد بذكر بيتين من **الالياذة** . ويعلم القارىء ما مدار هذه الملحمة : عصبة من الملوك والأمراء لم يقفوا عند حدود العدل في طلب القصاص بل أبوا ألا أن يدمروا الجاني ومدينته وشعبه تدميراً شحنوا له أكثر من ألف سفينة تحمل عشرات الآلاف من الجنود الذين لا ناقة لهم ولا جمل في هذه الحرب التي صارت رمزاً للحرب لا بما هي عدوان فحسب بل عدوان بلا غرض سوى الجاه . فلم انصياعهم ؟ تضليل الطبقات الحاكمة ؟ ولكن هذا التضليل ليس خدعة فكرية بتمايز فيها الخادع والمخدوع بل لغة يتحدد فيها المضلّلون والمضلِّلون إن لم أقل المضلَّلون بالمضلِّلين : فليس أشيع منذ أن خلقت الدول من هتاف الشعوب بافتداء الزعماء . هذه القوانين زد أعدادها ما شئت ، فالشعوب تزف اليوم إلى حتفها لا بالمئات وبالآلاف بل في طرود بمئات الآلاف ، ومع هذا ما يغير ذلك من الأمر شيئاً . لا بل أنهم لو ظهر بينهم من يفضح مضلليهم (ولنأخذ رجلاً كبرتراند رسل إبان الحرب العالمية الأولى) سارعوا إلى المطالبة باسكاته .

فالاستهلال **بالالياذة** رمز إلى ما ترمز إليه حرب طروادة .

يبقى أن ننظر إلى البيتين المساقين : **كثرة الأمراء سوء ، كفى أمير واحد ، ملك واحد** . هذان بيتان يجريهما أمير الشعراء (هومير) على لسان أمير (أوليس) ، كما يقول كلود لوفور ، والمناسبة هي أن الجنود إذ شكوا في قدرة امرائهم على تحقيق مرادهم وخشوا أن ينجح محاربو طروادة في تدمير سفنهم التي لا رجوع لهم بغيرها إلى ديارهم ، أخذوا في التمرد والاعلان عن رغبتهم في إنهاء الحرب . ولكن أوليس وهو رجل المواقف تصدى لهم وألزمهم محلهم مذكراً اياهم ـ وهم من هم ـ أن أهل الرأي غيرهم : **كفى أمير واحد** . كلمة كاذبة في رأي لابويسيه الذي يتكلم كأنه يجيب أوليس باسم الجنود : لأنه إذا كان الخضوع لواحد بؤساً « متى تسمى باسم السيد » ، تعدد البؤس بمقدار تعدد الأسياد ؛ ومنه كان يصدق أوليس لو أنه وقف عند قوله **كثرة الأمراء سوء** دون مزيد .

متى تسمى باسم الواحد : إن لابويسيه أبعد المفكرين عن إخراج الناس بالتخيل من المجتمع والدولة إلى الطبيعة ليستنتج بعدئذ ضرورة الاجتماع والدولة . إنه يبدأ من حيث يبدأ الناس منذ يولدون ، من اللغة التي ترتسم علاقاتهم في حدودها : السيد والعبد ، المالك والمستأجر ، الراهن والمرتهن ، الزوج والزوجة ، الخ . ولكن إذا كانت كل علاقة تدخل في مجال التشريع تتضمن حقوقاً وواجبات أو حقوقاً بواجبات وواجبات بحقوق (كما نقول عين بعين وسن بسن) وكانت من ثم تتضمن الأخروية أو تعدد الأطراف بحيث يصير الحديث

عن حقوق محصورة في طرف واحد لا تترتب عليها واجبات نوعاً من المغالطة (وهذا هو فعلاً رأي بعض رجال القانون في الحديث عن « حقوق الانسان ») فإن السيادة وإن لم يكن لها وجود إلا في عالم مصاغ في العرف أو في التشريع تتميز بكونها ليست حقاً بعينه يترتب عليه واجب منصوص عليهما في القانون ، بل هي حق إصدار القانون أو حق النص على ما هو حق وواجب بالتحديد . ومن ثمة فهي ليست حقاً بل قوة . ثم هي ليست بالعلاقة بل خروج عن العلاقة وخروج عن الأخروية والمساواة ما دامت هي التي تقرر ما الحق وما الواجب سواء فيما يتصل « بالآخر » أو بها نفسها . فالقانون الذي تصدره قد يتضمن دخولها طرفاً في علاقة مع الآخرين (كوجوب تعويض الأفراد في حالات معينة) ولكنها من حيث تصدر القانون آخر **مطلق** لا آخر له . هذا الخروج عن العلاقة وعن الأخروية وعن المساواة هو ما سنسميه المباينة ، وهذه المباينة هي ما يتم في **التسمي باسم السيد** . فأما أن يتسمى بهذا الاسم فرد بعينة (ولا أحتاج إلى ذكر الأمثلة) أو طبقة من الأفراد (وربما كان لابويسيه ـ عدا الالياذة ـ يفكر في ماكيافللي الذي كان يطلق اسم « الأمير » سواء على أمير بعينه أو على أعضاء الطبقة الحاكمة عامة) فهذا ما لا ينجم عنه إلا إختلاف في الدرجة لا في النوع . في هذا المعرض يبدأ لابويسيه في تحديد موضوع مقالة .

هذا الموضوع ليس المفاضلة بين أنواع الحكم على الأسلوب الموروث عن أرسطو ، كأن نرى إذا كانت الأشكال السياسية الأخرى للجماعة يفضل « الموناركية » أو حكم الواحد ، ثم يستطرد فيقول إنه لو أراد معالجة هذا الموضوع لود أولاً أن يعرف هل لهذا النوع من

الحكم مكانة ما إذ أن من الصعب الاعتقاد ببقاء شيء يخص الجماعة حيث ينفرد واحد بكل شيء .

ولقد رأينا كيف أن البعض ابتداء من معاصري لابويسيه من مناصري حركة الاصلاح الديني لم يتردد في أن يقرأ هذا الاستطراد هجوماً صريحاً على الملكية والطغيان حتى أنهم أضافوا إلى المقال عنواناً من اختراعهم هو « تهافت الواحد » ، ولكنا قد تبينا تواً أن الوحدانية المعنية في هذا النص ليست وحدانية الفرد بل وحدة الاسم الذي يتسمى به أو بالأحرى وحدة المحل ، محل المباين ، الذي يتحدد بهذا الإسم ، ولقد يحمله ثلاثون (كطغاة أثينا الذين سيشير إليهم لابويسيه) أو عدد يزيد أو ينقص . هذه الملاحظة ربما أعانت على تخمين رأي لابويسيه لو أنه طرق هذا الموضوع الذي تركه لأنه « يستحق أن يفرد له مقال خاص » : لا أظنه إلا مؤيداً لما يذهب إليه المؤرخ الروماني تيت ـ ليف إذ يقول في ايجاز إنه لا وجود لحرية حقيقية بدون تناوب الحكم . وأيا كان الأمر فإن التعريف بما ليس موضوعنا لا يغني عن التعريف بهذا الموضوع .

وعليه يشرح لابويسيه هدفه قائلاً أنه إنما يبتغي أن يفهم كيف أمكن أن نرى الملايين من البشر يحتملون أحياناً طاغياً واحداً دون أن تحملهم على ذلك قوة أكبر بل هم فيما يبدو قد سحرهم وأخذ بألبابهم مجرد الاسم الذي انفرد به البعض . فلو أن السيادة كانت بقوة السيف ولو أن الخضوع كان قهراً كخضوع أثينا للطغاة الثلاثين لما دعا الأمر إلى العجب . ولكننا نرانا هنا بازاء ظاهرة غريبة ، ربما كان أحسن ما

يعيننا على تفهمها هو أن نرى ما ضدها ـ وهو ما ينتقل إليه لابويسيه في الفقرة التالية .

هذا الضد هو الصداقة . إن الصداقة تدعونا إلى عرفان الجميل من حيث تلقيناه والاستغناء أحياناً عن بعض ما فيه راحتنا لنزيد به شرفاً وامتيازاً من نحب ومن استحق هذا الحب . « ولكن لو أن بلداً رأى سكانه كبيراً منهم يبدي بالبرهان فطنة كبيرة في نصحهم . . . فانتقلوا من ذلك إلى طاعته واسلامه قيادهم له إلى حد اعطائه ميزات دونهم فما أدري أهذه حكمة أن ينقلوه من حيث كان يسدي الخير إليهم إلى حيث يصبح الشر في مقدوره . إن التخلي عن خشية الشر ممن لم نلق منه إلا الخير لحكمة لو كان محالاً أن يخالط طيبة نقص » . ومنه نرى أن السؤال تمكن صياغته على هذا النحو : لم كان الناس لا يقفون في مجال الحياة السياسية عند تكليف الحكام ومحاسبتهم وجزائهم بل يذهبون إلى اخراجهم عن حدود الأخروية والمساواة وإلى تخيل المباينة فيهم ؟ وربما كنا تبينا شيئاً من الجواب عن هذا السؤال : إنهم لا يكتفون دائماً بما يعرض لهم من الطيبة أو الخير بل يذهبون إلى حد الرغبة في طيبة «لا يخالطها نقص » ، يستحيل العثور عليها إلا في اعتقادهم . أنقول أن هذه التعلية إنما هي جزاء ما يتحلون به من الصفات ؟

ولكن لابويسيه لا تفوته ملاحظة أن الناس قد يحتملون أحياناً السلب والنهب وضروب القسوة لا من عسكر أجنبي ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضده ، بل من سيد « لا هو بهرقل ولا شمسون بل خنث ، هو في معظم الأحيان أجبن من في الأمة وأكثرهم تأنثاً » . وهنا أيضاً

ذهب القراء إلى التساؤل : إلى أي ملك أو أمير يلمح لابـويسيه بهـذا الوصف ؟ ولكنا نلحظ أن نمـاذج الحكام لا يحـدها الحصـر ، فهناك المستأسد والمتردد ، والواعـد والمتوعـد ، والمندفـع والمتردد ، ومن ينشـر الخوف ومن ينشـر الضحك . . . الـخ ، أي هم تتنوع طبـاعهم بتنوع طبائع الانسان ولقد يمر الواحد منهم بهذه الأطوار جميعـاً ، فإن اشتركوا في شيء ففي المكر الذي يكاد يحل عنـدهم محل مـا يسميه بـرجسون « الانتبـاه إلى الحياة » . فـإذا كان لابـويسيه قـد اختار هـذا النموذج بالذات ، نموذج الخنث ، فليس لأنه يفكر في « طاغية » بعينه كأنما كان موضوع المقال وصف « طبائع الاستبداد » ، وإنما لأننا وقد بدأنا **بالالياذة** قرب قائل يقول : إن جنود المدن والدول اليونـانية إنمـا خضعوا لامرائهم وملوكهم لأنهم كانوا أنصاف آلهة ، فأي رد على مثل هذه الحجة سوى التنبيه إلى أننا نرى الظاهرة نفسها مع أنصاف رجال ؟ وخلاصة الكـلام هي أن المباينـة لا تلدها الصفـات ، فما من انسـان تحلى بصفة تخرجه من أن يكون بشراً .

إن هذه الظاهرة قد تخفي على أصحابها (ولنقـل جنود اليـونان) طالما تقمصوا رغبة أمرائهم (ولنقل تدمير طروادة) . ولكنها تسفر عن وجهها تكبر أبعادها إلى حـد يثير العجب في حـالة الـطغيان المستنـد صراحة إلى القوة سواء كان الطاغية فاتحاً غازيـاً أو طاغيـة بالـوراثة أو رجلاً طلب الشعب توليته مقاليـد الحكم (وهو المعنى الأبـرز للكلمة اليونانية المترجمـة بالـطاغية) . ولقـد يرى القـارىء على العكس أن سؤال لابويسيه لا يعود له محل ما دام الخضوع للطغيان خضوعاً للقوة لا اختياراً . ولكن مؤلفنا يسأل : أي قوة والطاغية واحد بينما محتملوه

« على كره » بالملايين ؟ أنقول أنه الجبن ؟ « لقد يخشى اثنان واحداً ولقد يخشاه عشرة . . . فأما ألف مدينة أن هي لم تنهض دفاعاً عن نفسها في وجه واحد فما هذا بجبن لأن الجبن لا يذهب إلى هذا المدى كما أن الشجاعة لا تعني أن يتسلق امروء وحده حصناً أو أن يهاجم جيشاً أو يغزو مملكة . فأي مسخ من مسوخ الرذيلة هذا الذي لا يستحق حتى اسم الجبن ولا يجد كلمة تكفي قبحه والذي تنكر الطبيعة صنعه وتأبى اللغة تسميته ؟ »

يذكرنا لابويسيه من أجل تبين هذا « المسخ » بأمثلة الشجاعة التي تملأ قلوب الشعوب التي تهب دفاعاً عنه . أنقول أن الخضوع للطغيان لا يعني انعدام إرادة الحرية بل الاحجام عن دفع ثمنها ؟ يرد لابويسيه على ذلك في فقرة تبدو تصويراً لمنهج « العصيان المدني » من حيث هو كل ما يتطلبه اسقاط الطاغية : « للبلد إذا أراد ألا يتحمل مشقة السعي وراء ما فيه منفعته ، كل ما يقتضيه الأمر هو الامساك عما يجلب ضرره » . نذهب إذن إلى القول بأن الاستكانة لاستعباد الطاغية تعني انعدام الرغبة في الحرية ؟ لو صحت النتيجة لكانت شيئاً عجيباً : أتكون الحرية التي هي الخير الأعظم والأطيب ، هي أيضاً الشيء الأوحد الذي تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه ؟

هنا ، بعد أن بلغ التناقض أوجه ، يسترسل لابويسيه في صفحة خطابية موجهة إلى الشعوب كأنه يطلعها على مرآة تتيح لها ـ إذا كان لمثل هذه المرآة وجود ـ أن ترى في آن معاً واقعها المتجسد وصورته المعكوسة على السواء . فأما واقعها فسلب لا يترك لها ما تفخر بملكه ، « حتى أنفسكم ليست لكم » . وأما من ناحية المرآة فهم أيضاً

مسلوبون بصورة لا يعلمون أنهم هم من « صنعوا كبرها »[1] ، صورة العدو الذي « تمشون إلى الحرب بلا وجل من أجله ولا تنفرون من مواجهة الموت بأشخاصكم في سبيل مجده » .

ويبدو أن لابويسيه كان يوجه هذا النداء إلى الشعوب وهو يعلم أن ليس أصعب من رد المرء عن تجاهله لمدى مشاركته في صنع ما يشكو منه ، لأنه يعود فيقول : « بيد أن الأطباء محقون بلا شك إذ ينهون عن لمس الجروح التي لا برء منها . . لنحاول إذن أن نتبين لو أمكن ذلك كيف استطالت إلى هذا المدى البعيد تلك الإرادة العنيدة ، إرادة العبودية ، حتى صارت محبة الحرية نفسها تبدو اليوم كأنها شيء لا يمت إلى الطبيعة بسبب » . ـ فأما وقد اتضح السؤال على هذا النحو فيبقى أن نقول كلمة عن مسار لابويسيه في معالجته .

يبدأ المؤلف بالنظر لا أقول إلى الانسان بل إلى الناس كما سوتهم الطبيعة التي هي « وزيرة الخالق وآمرة الخلق » . وتبدأ بذلك صفحة يقرأ القارىء فيها أول ضربات المعول في صرح الفكر السياسي الوسيط . انتهت استعارة الجسد من حيث كانت تحكم هذا الفكر من الألف إلى الياء وانتهى ما تستتبعه من الأخيلة : الرأس الموجه (ومن

(١) ومنه كانت هذه الصورة هي التي تطيب لهم رؤية أنفسهم فيها من حيث لا يعلمون . هذه في رأيي إشارة إلى نظرية « الإنسلاب » بمعنى تعريف الأنا لا بوعيه بل بما يجهله من توحده أو تعينه بالآخر الذي يبدو مغايراً له ـ وهي النظرية التي نعلم ما ستلقاه من التعميق والتعميم إبتداء من هيجل وماركس إلى يومنا هذا ، وإن يكن حدس الشاعر قد سبق إليها : ياجو: « أنا عطيل . إذ ألاحقه ألاحق نفسي » .

يُوَجِّهه ؟) ، الراعي (كان الناس غنم تحرسها الكلاب) ، الأب (وأرجو أن يقرأ القارىء جون لوك في تفنيد هذا الادعاء الأبله الذي يدعو انطلاؤه على المقول إلى الحسرة) إلى آخر هذه العبارات المنبثة في الألسنة ، يتمثل فيها هذا القطاع من اللغة المؤدي لا إلى تعارف الناس بتعرف أُخُوَّتهم بل إلى الحيلولة دون هذا التعارف . وبالاختصار انتهى التصور الوسيط للجماعة بما هي هرم قاعدته في الأرض ورأسه بالضرورة في السماء .

فإذا كانت نقطة البدأ هي الطبيعة (ولا أطيل الحديث في مغزى اختيار هذا المنطلق) فالمبدأ هو « المساواة » وهو ما يعني عند لابويسيه أخروية التعاون لا أخروية الغلبة ، والمبدأ هو « تلك الهبة الكبرى » هبة الصوت والكلم « التي لا سبيل بدونها إلى أن يتعرف كلٌ نفسه « في مرآة الآخرين » . وكل هذا يصب في جملة واحدة ، هي أن الطبيعة « قد بينت في كل ما تصنع أنها لا تهدف إلى توحيدنا جميعاً بقدر ما تهدف إلى أن نكون جميعاً آحادا » . وأنها لجملة يتبخر وقعها إذا لم ينتبه القارىء إلى ما تتضمنه من التفرقة التي لم يتم صوغها صوغاً صريحاً إلا في القرن التاسع عشر على يد فريجه بين معنيي « الواحد » : فهناك من جهة واحد العدد الذي يعني في الحقيقة الكثرة لأنه مجعول للتكرار فأنت لا ترسم الخط الدال عليه إلا بجانب خط آخر موجود بالفعل أو بالامكان ولولا تكراريته هذه لما كان العدد ؛ وهناك من جهة أخرى الواحد بمعنى الكل المكتمل الذي « لا يخالطه نقص » . هذا الواحد الذي لا وجود له إلا في اللغة هو الذي يملي علينا خلق المسوخ الشمولية . نقول « الكون » كان الكون دائرة

مغلقـة ، ونقول « الجمـاعة » كـأن الجمـاعـة ليست كثـرة من الآحـاد والمصالح والقوى ، ونقول « الانسان » كأن الانسان قالب من الصخـر تنحت منه الأجناس والشعوب[1] وليس الناس بما هم أفراد أو آحاد قد تأتلف وقد تتصارع إن جموعاً وإن فرادى . ولست أدعي أن لابويسيه قد تبين صراحة في هـذه المسوخ الشمـولية الأوهـام التي تغذي نـرجسية الشعوب من حيث يصبو كـل واحد إلى الـواحد ؛ فمثـل هذا الادعـاء ينسب إلى المؤلف الحديث بلغة مقـطوعة الصلة بلغـة العصر ، وهـو محال . ولكنه على أية حال قد جعل من الحرية مرادفاً للمساواة بما هي نفي للمراتب فضلاً عن الاسترقاق وأنه إذا كان قد جعل منها مبدأ أو حقاً طبيعياً فبقدر ما جعل الطبيعة نفسها تصنع صنعها بواساطة اللغـة . . . وإلا ففي أي ركن من أركان الطبيعة الخام يجد الانسان العدد والآحاد ؟

لـذا كنا نعجب بعض الشيء إذ نـراه يستشهد في الفقـرة التـاليـة بمسلك الحيوان (الفيل والبقر والسمك ، الخ) من أجل التدليل على أننا مفطورون على محبة الحرية والذود عنهـا . ولكننا نـلاحظ أولاً أنه إنما يسوق هذه الحجة بعد تقييدها بكونها حجة يسـوقها لمن لا يفقـهُ حتى يفقهَ . ونلاحظ ثانياً أنه لا يلجأ إليها إلاَّ تمهيداً للرأي الذي يبديه بعد ذلك في أول أسباب العبودية ، ألا وهو العادة .

---

(1) وهو المعنى الذي يستشفه كل ذي أذنين وراء العبارة التي انتشرت اليـوم على أقـلام البلهـاء : عبـارة « الإنسـان المصـري » (في حين نكتفي بـأن نقـول الامريكي أو الفرنسي) ، كأننا صرنا نخشى الخروج من حظيـرة الإنسانيـة أو كأن الإنسانية صارت كل ما نملك الفخر له ! .

يبدأ لابويسيه شرحه لهذا الرأي الأخير بأن يفرق بين ثلاثة أصناف من الطغاة : فهم إما يختارهم الشعب (وهو المعنى الذي أشرنا إلى أنه أقرب المعاني إلى المراد بكلمة الطاغية في اليونانية) وإما يأتون بقوة السلاح وإما بالوراثة . ثم بعد أن يصف مسلك هذه الأصناف الثلاثة في صفحات أترك للقارىء تذوقها ينتهي إلى أنه ليس له اختيار ما دام أياً كان الصنف الذي تتوقاه فالصنفان الآخران أسخم . ولكن الذي يعنينا هنا هو ما تنطوي عليه هذه « التفرقة » (أو بالأحرى المعادلة) من الجرأة التي يصعب علينا الآن تصورها : فهو لا يتردد في المحاذاة بين الملكية الوراثية التي كان يرى فيها معاصروه جميعاً نموذج الحكم الشرعي وبين الصنفين الآخرين . أضف أن المحاذاة بين هذا الحكم الوراثي الذي لا يشك المحكومون في مشروعيته وبين الحكم الذي مصدره اختيارهم ثم الصنف الثالث المؤسس على قوة السلاح دليل كاف على أن المشكلة لا تتعلق بالطغيان بمعنى الاستبداد المبني على الارهاب بل بالحكم عامة من حيث تخلع مناصبه على شاغليها جاهاً غامضاً يفسر ولو إلى حد دعوة الشعوب للطغاة (وهو ما يقع أحياناً) ويفسر احتمالها إياهم إن جاؤوا غير مدعوين .

ولكن أليس اللجوء إلى العادة من أجل تفسير العبودية المختارة تناقضاً واضحاً ؟ لقد بدأنا باثبات هذه الظاهرة : هناك عبودية مختارة . ثم قلنا إن هذه العبودية ليست طبيعة في الناس، بل هم مفطورون على محبة الحرية . ومنه يخرج أن العبودية لا تأتي أبداً اختياراً وإنما عن طريق القهر أو الخداع ، وكل ما نستطيع اضافته هو أن الاستعباد متى دخل عن هذا الطريق وخضع له جيل من الأجيال استسلمت له الأجيال

التالية استسلامها لوضع طبيعي يصبح عندها عادة أو طبيعة ثانية لا ترى فيها غرابة ما دامت قد ولدت في ظله ولم تخبر وضعاً غيره . ولكن هذه الإضافة لا ترفع التناقض الذي وقعنا فيه إذ أجبنا عن سؤالنا إجابة تتضمن نفي موضوعه من حيث تجعل من العادة ، باعتبارها طبيعة ثانية ، الطبيعة الأقوى أو الغالبة .

الرد على هذا التناقض هو :

أولاً : إذا كان الانسان بحكم طبيعته لا تعريف له في رأي لابويسيه ، إلا بكونه رغبة في الحرية ، فإن هذه الرغبة لا يمكن أن تضيع ضياعاً تاماً « ما دام بالانسان أثر من الانسان » . وعليه فالعادة مهما تأصلت لا يستتر وراءها جهل مطلق بالحرية بل نسيان وتجاهل لا نعجب إذا كان الطغاة يحرصون على تغذيتهما بتغذية الجهل وبمقاومة الثقافة والتنوير وإن لم يفلحوا في الحيلولة دون أن يظهر إن آجلاً وإن عاجلاً (أناس) لم تندثر فيهم ذكرى الحرية كل الاندثار وسلّحوا عقولَهم بالتثقف « لأن الزمن مهما طال لا يمكن أن يجعل من الغبن حقاً » .

ثانياً : صحيح أن لابويسيه يتحدث عن دخول الاستعباد أما بالقوة أو بالخداع . ولكن هذا اللحن يصحبه لحن ثان لا يلبث أن يظهر لنا في هذه المقدمة ، ألا وهو أن خداع الشعوب أنفسها لا يقل عن خداع الحكام ، ينطق بذلك اسراعها إلى قبول خداعهم اسراع السمك إلى الطعم .

ينتقل إذن لابويسيه إلى وصف مناهج الحكام في التغرير بالشعوب في صفحات استقى مادتها من التاريخ القديم والتاريخ الروماني بنوع خاص ولكنها لا تترك قارئاً أياً كان زمانه ومكانه دون أن تذكره بمادة مماثلة مستقاة مما يدور في عصره سواء في بلده أو في غيره من البلاد وإن تفاوتت الدرجات . ثم بعد الانتهاء من وصف تلك المناهج « الوثنية » في التغرير ، إن جاز هذا التعبير (الألعاب والولائم والأعياد والمواكب ، الخ) ينتقل إلى معجزات الشفاء التي كانت تنسب إلى الأباطرة والملوك والتي يعلم القارىء كيف حار أمامها المؤرخون والأنثروبولوجيون حتى استنجد بعضهم بغية تفسيرها « بالعقلية البدائية » وكان أولى بهم أن يستمعوا إلى قول لابويسيه إن الشعوب هي التي تخلق بنفسها الأكاذيب حتى تعود فتصدقها ـ وهو ما يعني في لغتنا المودرن أنه ما من إيحاء ينتج أثراً إلا إذا طابق إيحاءك إلى نفسك . وبماذا يوحي الناس إلى أنفسهم ؟ بماذا يحلمون ؟ إن لم يكن بموضوع تتجسد فيه قدرة الحب (أو ما يريده من القدرة) على دفع كل شر (العمى ، العرج ، البرص ، حتى الموت) أو قدرة الكره على إنزال كل شر ؛ يكفي أن يستمع المرء إلى حديث الناس عن أطبائهم وأدويتهم حتى يتبين أن هذا الحلم لن يختفي غداً .

ثم ماذا بعد الكرامات ألا التجلي . تجلي المباين . المباين بما هو المتأله . يصف لابويسيه كيف يظهر فرعون في سحابة من الموضوعات الغريبة (الأفاعي ومفاتيح الحياة والأسواط ، الخ) ترمز إلى قوى الأرض والسماء من حيث تلتقي جميعاً في شخصه بما هو وسيط بين العالمين . ثم يصف تغيب ملوك آشور عن الظهور حتى

يسأل الناس أهم بشر أم شيء يزيد وحتى يكمل خضوعهم لحاكم لم يروه عياناً فرأوه بعين الاعتقاد . أنقول « عقلية بدائية » مثلما البعض منذ هنيهة ؟ في سطور جمع إعجازها قمة الأدب إلى قمة السخرية يعرج لابويسيه إلى من سماهم « طغاتنا » وما يعني بهم إلا ملوك فرنسا ، ملوكها الذين تكونت حول أشخاصهم لا الدولة وحدها بل الدولة والأمة معاً ، فرنسا ذاتها ، حولهم وحول رموزهم : الضفادع والزنابق والقارورة المقدسة ، الخ . هذه الضفادع من تلك الأفاعي .

ذلك أكره ألوان التغرير إلى مؤلفنا : التغرير بالدين . ولا أدري ماذا يكون تعليقه على هذا السؤال الذي يرد اليوم على أقلام معاصرينا : هل يصنع الانسان الدين أم يصنعه الدين ؟ ولكني لا أراه إلا مؤيداً لكلمة ابن خلدون الحاسمة عن « خلق التأله الذي في طبائع البشر » ؛ فهو نفسه يقول إن الحكام لو استطاعوا « لاستعاروا نبذة من الألوهية » . ولكن كيف ينطلي التأله بغير التأليه ؟ إن حديث لابويسيه عن تغرير الشعوب أنفسها يعود بنا إلى ما أشرنا إليه من نزوع الآحاد إلى الواحد الذين ينسلبون فيه عن أنفسهم بما هم آحاد ليرونها فيه بما هو كل . لقد خُلقنا أصدقاء متساوين ، هذا على الأقل رأي لابويسيه ، ولكنا نصبو إلى الخروج من هذه المساواة ، نصبو إلى القوة ـ ولعل القارىء قد شعر من حديثنا عن الكرامات كيف يجنح بنا الحب إلى هذا المنعطف . صحيح أن رغبة الحرية والمساواة ـ من حيث يرى فيها لابويسيه تعريف الانسان ـ تدفع الناس إلى الايمان بالله الذي يتساوون أمامه جميعاً . ولكن هذه المساواة تظل محصورة في الاعتقاد دون أن تمنع تفاوتهم في الواقع ، لا بل هم ذهبوا في بعض العصور منها العصر

الوسيط إلى اسناد تفاوتهم هذا إلى إرادة الخالق نفسه ، ولا أحد يدري على التحديد الام نصير حين تخلو السماء من كل ما يلقى على الأرض ولو هذا الظل من المساواة المجردة . أياً كان الأمر فهذا الاسناد هو ما رأينا لابويسيه يتولى نفيه .

صحيح أن مؤلفنا لم ينطق باسم الانسلاب أو باسم التعين أو التوحد بالواحد ، ولكن ذلك ما يخرج من كلامه بما لا يقبل الشك إذ يمضي قائلاً إن ما وصفه حتى الآن لا يتعدى المناهج التي يصطنعها الطغاة في التغرير بالشعب الساذج إذ يتقدم إلى الكشف عن « النقطة التي يكمن فيها سر السيادة » ، سر الطغيان . ذلك أن الطغاة لا يكتفون بالاستئثار بالطاعة بل هم يطلبون **الاخلاص** ، يطلبون ، بعبارة أخرى ، قلب طبيعة الانسان ذاتها بحيث تحل عنده رغبة العبودية محل الرغبة الأولى في الحرية . وإنهم ليظفرون لمطلبهم . يظفرون به إذ يجدون خمسة أو ستة انبهروا بهم انبهار الفراشة بالنار المحرقة ، يريدون التشبه بهم وأن يكونوا طواغية على غرارهم . ثم هؤلاء الستة يأتون بستمئة مثلهم يذيلهم ستة آلف تابع « يوكلون إليهم مناصب الدولة ويعهدون إليهم إما بحكم الأقاليم وإما بالتصرف في الأموال ، تاركين اياهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم بقاء إلا في ظلهم ولا بعداً عن طائلة القوانين وعقوباتها إلا عن طريقهم . « ثم تتسع الشبكة فإذا بنا نرى « الملايين يربطهم بالطاغية هذا الحبل ، مثل جوبيتر إذ يجعله هومير يتفاخر بأنه لو شد سلسلته لجذب إليه الآلهة جميعاً » . ومنه نرى كيف تخترق السيادة أو بالأحرى كيف يخترق الاستعباد المجتمع كله من أعلاه إلى أسفله من حيث ينزع أفراده إلى أن يكونوا هم أنفسهم

طغاة مصغرين ، ولكنا نرى أيضاً كيف « يستعبد الطاغية رعاياه بعضهم ببعض ، يحرسه من كان أولى بهم الاحتراس منه لو كانوا يساوون شيئاً » . ـ أي نرى كيف تتحول السيادة المبنية في نهاية الأمر على الرغبة المشتركة في موضوع موهوم إلى استغلال فعلي ، كيف ينقسم المجتمع قسمين : قسم ممن يشبههم لابويسيه باللصوص والقراصنة ، وقسم من أهل القرى والأجراء وأصحاب الحرف الذين تَحْلُوا للأوائل « معاملتهم معاملة أشر من معاملة السخرة والعبيد » .

يبقى أن الطاغية لا يلقى الحب أبداً ولا هو يعرف الحب لأنه وقد علا الجميع وعدم كل رفيق قد خرج بهذا عينة عن حدود الصداقة التي هي « اسم طاهر وجوهر قدسي مقعده الحق هو المساواة » . وهنا يترك لابويسيه الطاغية لعزلته فلا يعود إلى الحديث عنه ليتخذ مكانه بين صفوف المستضعفين متحدثاً بلسانهم عن الطغاة المصغرين . فإذا أخذنا كلمة « الإنسلاب » بالمعنى الدقيق الذي أعطاه هجل وماركس لهذا المصطلح ، أي إنسلاخ الذات عن نفسها لتنقلب موضوعاً لا تتبين نفسها فيه ، فما وصف لابويسيه لهؤلاء الطغاة المصغرين إلا وصفاً للإنسلاب عينه : أرادوا القوة وأرادوا المتعة والاكتناز فإذا كلهم خشية لا متعة فيها ولا ملك ! ثم هم بعد ذلك لا يلقون إلا سواء المصير في الدنيا وفي الآخرة ، فإنهم هم الذين تلعنهم الشعوب وتمرغ أسماءهم في الوحل . . . . دون الطاغية ! .

إني أترك الآن **المقال في العبودية المختارة** ليد القارىء . وأياً كان رأيه فلا شك في أن هذا النص إذا كان يحظى اليوم بانتباه منقطع النظير من جانب المشتغلين بالفلسفة السياسية والاجتماع فلأن أحداث العصر

الذي نعيش فيه منذ الحرب العالمية الثانية لا تترك بداً من التفرقة بين السيادة والاستغلال ومن مواجهة هذا السؤال : هل استغلال الانسان للإنسان هو أساس السيادة وما هذه إلا نتيجته ، أم أن للسيادة جذوراً أخرى ما كان الاستغلال ليتسبب بغيرها في صورة الدولة ؟

أيعني ذلك أن هذا الكتاب يخلو كل الخلو من قوة الاثارة الثورية التي نسبها إليه معاصروه وجميع من تلاهم إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية ؟ كل ما أستطيع قوله هو يقيني بأن اتين دي لابويسيه إنما قال ما نعلمه جميعاً في قرارة أنفسنا ، وما أسرعنا إلى تجاهل ما نعلم ونسيانه . ولهذا كنت لا أعجب إذ أراه يختتم خطابه بدعوة إلى أن نتعلم لا أظن أحداً يسمعها . . سوى الأصدقاء .



مقال
في العبودية المختارة (*)

(*) جميع الهوامش من وضع المترجم .



كثرة الأمراء سوء ،
كفى سيد واحد ، ملك واحد[1]

بهذه الكلمات خطب أوليس القوم في هوميروس . ولو أنه وقف عند قوله :

كثرة الأمراء سوء ،

لأحسن القول بما لا مزيد عليه . لكنه حيث وجب تعليل ذلك بالقول بأن سيطرة الكثيرين لا يمكن أن يأتي منها الخير ما دامت القوة المسندة إلى واحد ، متى تسمى بإسم السيد ، صعبة الاحتمال منافية للمعقول راح يعكس الكلام فأضاف :

كفى سيد واحد ، ملك واحد .

بيد أن أوليس ربما وجبت معذرته إذ لم يكن له مفر من استخدام

(١) عن الالياذة ، الأنشودة الثانية ، البيتان ٢٠٤ و ٥٠٢ . كانت جيوش اليونانيين تحاصر طروادة منذ تسع سنوات دون أن تتمكن من الإستيلاء عليها فبدأ المحاربون يستهويهم إقتراح العودة إلى ديارهم دون تحقيق النصر. إلا أن أوليس استوقفهم يشرح حجته للقواد من أقرانه، فإن تحدث إلى جندي عنفه وذكره أن واجبه الطاعة لا الأمر والرأي ، لأن الأمر والرأي إنما يكونان لواحد .

هذه اللغة حتى يهدىء ثورة الجيش مطابقاً بمقاله المقام بدل مطابقة الحقيقة. فإن وجب الحديث عن وعي صادق فإنه لبؤس ما بعده بؤس أن يخضع المرء لسيد واحد يستحيل الوثوق بطبيعته أبداً ما دام السوء في مقدوره متى أراد ، فإن تعدد الأسياد تعدد البؤس الذي ما بعده بؤس بقدر ما نملك منهم . وما أريد في هذه الساعة طرق هذه المسألة التي

هذا ولقد كانت المدن أو الدول اليونانية الأولى (حوالي القرن الحادي عشر قبل الميلاد) تتألف من عصبيات يرأسها ملوك وأمراء مثل الذين أشاد هوميروس بحروبهم على طروادة . صحيح أن هوميروس كان يفصل بينه وبين هذه الوقائع نحو ثلاثة قرون وأن إلهامه كان يستند في أغلب الظن إلى روايات كانت لا تزال تتردد على الأفواه إبان حياته (القرن الثامن ق . م .) إلا أن التطابق بين أوصافه وبين ما يمكن استنباطه من الحفريات يدعو إلى الأخذ بصحتها . فلا شك في أن هؤلاء الملوك والأمراء كانوا يتفاخرون بانتسابهم إلى الآلهة وأن هذا الإنتساب لم يكن يلقى تصديق الجميع وحسب بل أن عامة الناس كانت ترى فيه تحديداً السبب الذي من أجله تسرع إلى خدمتهم والقتال في سبيلهم . وهذه ظاهرة لا نزال نشهدها بين العشائر التي يتألف منها كثير من المجتمعات إلى يومنا هذا ، كل الإختلاف الذي ينجم حين تعتنق هذه المجتمعات عقيدة التوحيد هو أن الرؤساء لا ينسبون أنفسهم إلى الآلهة بل إلى الأنبياء والغزاة والأبطال من كل مضمار .

أمر آخر يجدر الوقوف عنده . ذلك أن الكلمات دالة في اللغة اليونانية (واللغة دستور الجميع ، إذا جاز التعبير) على علو المكانة (مثل أريسطوس وأجاثوس وأستلوس ، إلخ .) كانت تدل كذلك على السمو الخلقي . وهذه أيضاً ظاهرة لا نزال نشهدها إلى يومنا في اللغة الإنجليزية مثلاً حيث تدل ذات الكلمة (نوبل) على الإنتماء إلى الطبقة الأرستوقراطية وعلى صفة تسند إلى أفعال الشخص أو حتى إلى ما يقدمه من النبيذ .

كثر الجدل فيها : إذا ما كانت أشكال الجماعة[1] الأخرى تفضل حكم الواحد[2] . ولـو أردت لوددت قبـل النظر في مكـانة هـذا الحكم بين الأشكـال الأخرى أن أعـرف أولاً هل لـه مكانـة ما ، لأن من الصعب الاعتقـاد ببقاء شيء يخص الجمـاعة حيث ينفـرد واحد بكـل شيء . ولكن هذه مسألة متروكة لوقت آخر وتقتضي مقالاً يفرد لها وإلا جلبت معها جميع المنازعات السياسية .

فأما الآن فلست أبتغي شيئاً إلا أن أفهم كيف أمكن هذا العدد من الناس ، من البلدان ، من المدن ، من الأمم أن يحتملوا أحياناً طاغياً واحداً لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه ، ولا كان يستطيع إنزال الشر بهم لولا ايثارهم الصبر عليه بدل مواجهته . إنه لأمر جلل حقاً وإن انتشـر انتشاراً أدعى إلى الألم منه إلى العجب أن نرى الملايين من البشر يخدمون في بؤس وقد غُلّت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قـوة أكبر بـل هم (فيما

---

(١) الكلمة التي ترجمناها هنا بالجماعة هي ما يترجم اليوم بالجمهورية . ولكنهـا كانت ترد في القرن السادس عشر بالمعنى الحرفي الذي يخرج من اشتقاقها ، وهي مشتقـة من كلمتين في اللغة اليـونانيـة : رس بمعنى شيء وبوبليكـوس بمعنى عام . ومنه كان معناها الأضبط هو المنفعة أو المصلحة العامة . ولمـا كانت هذه الفكرة أحد التصورات الأساسية التي ينبني عليها القانون الـروماني بدا لنا ـ بعد أن نبهنا إليه الدكتور إسماعيل عبد الله ـ أن أقـرب ما يعـادلها في الفقه العربي هو تصور الجماعة .

(٢) هنا أيضاً يستخدم المؤلف كلمة تترجم اليوم بالملكية وترجمناها بحكم الواحد لإشتقاقها من اليوناني مونوس بمعنى واحد وآركي بمعنى السلطة أو الحكم .

يبدو) قد سحرهم وأخذ بألبابهم مجرد الأسم الذي ينفرد به البعض ، كان أولى بهم ألا يخشوا جبروته ، فليس معه غيره ، ولا أن يعشقوا صفاته فما يرون منه إلا خلوة من الانسانية ووحشيته . إن ضعفنا نحن البشر كثيراً ما يفرض علينا طاعة القوة ونحن محتاجون إلى وضع الرجاء في الارجاء ما دمنا لا نملك دائماً أن نكون الأقوى . فلو أن أمة أجبرت بقوة الحرب على أن تخدم واحداً (مثل أثينا الطغاة الثلاثين)[1] لما وجب الدهش لخادِمِيّتِها بل الرثاء لنازلتها ، أو بالأحرى ما وجب الدهش ولا الرثاء بل الصبر على المكروه والتأهب لمستقبل أفضل .

---

(١) كانت الديموقراطية في أثينا (مثلها في الولايات المتحدة اليوم) لا تنفصل عن سياستها المتسيطرة أو الأمبريالية التي كانت تكفل رغد مواطنيها . لذا أعلن عليها الحربَ عام ٤٣١ ق . م . درءاً لهذه السياسة عدد من المدن أو الدول اليونانية تزعمته أسبرطة ، وهي الحرب المعروفة باسم حرب البيلوبونيز . وفي عام ٤٠٤ ق . م . إنتهت هذه الحرب الطويلة بهزيمة أثينا وبأن أملت أسبرطة على شعبها مجتمعاً في مجلسه اختيار ثلاثين « محرر » (لوغوجرافوي) أوكل إليهم تحرير دستور جديد . ولم يلبث هؤلاء الثلاثون الذين كانوا ينتمون إلى الطبقة الأوليجاركية أي إلى القلة الثرية ذات الحسب أن استولوا على زمام الحكم ولم يلبث حكمهم أن إنقلب إلى رعب مسلط على الرؤوس : الجيش الأسبرطي يرابط فوق الأكروبول ، الأجانب المقيمون بأثينا ومواطنوها أنفسهم إما يقتلون أو يشردون أو تصادر ممتلكاتهم ، أما الدستور الموعود فلم ير الضوء . وبلغت المأساة ذروتها حين قُتل زعيم المعتدلين بين الثلاثين ، لاثيرامين ، وإنفراد بالحكم أعتاهم ، كريتياس . إلا أن الطغاة لم يستطيعوا دفع جماعة من المتمردين ترأسهم ثراسيبول عن الإستيلاء على بيريه ، مرفأ أثينا ، بعد معركة قتل فيها كريتياس (ديسمبر - يناير ٤٤/٤٣ ق . م .) . بهذا الانتصار تسنى الإتفاق بين المعتدلين من الأوليجاركيين وبين الديموقراطيين

إن من شأن طبيعتنا أن تستغرق واجبات الصداقة المشتركة بيننا قسطاً لا بأس به من مجرى حياتنا . فمن العقل محبة الفضيلة وتقدير الأعمال الجليلة وعرفان الفضل من حيث تلقيناه والاستغناء أحياناً عن بعض ما فيه راحتنا لنزيد به شرفاً وامتيازاً من نحن ومن استحق هذا الحب . فلو أن بلداً رأى سكانه كبيراً منهم يبدي بالبرهان فطنة كبيرة في نصحهم وجرأة شديدة في الدفاع عنهم وترويا جماً في حكمهم فانتقلوا من ذلك إلى طاعته وإسلام قيادهم له إلى حد إعطائه ميزات دونهم فما أدري هي حكمة أن ينقلوه من حيث كان يسدي الخير إليهم إلى حيث يصبح الشر في مقدوره . إن التخلي عن خشية الشر ممن لم نلق منه إلا الخير لحكمة لو كان محالاً ألا يخالط طيبته نقص .

ولكن ما هذا يا ربي ؟ كيف نسمي ذلك ؟ أي تعس هذا ؟ أي

إتفاقاً توسط فيه ملك إسبرطة . وانتهت المحنة برجوع النظام الديموقراطي في أواخر صيف ٤٠٣ ق . م . والقضاء على فلول الثلاثين . ويعد هذا الإتفاق صفحة من أمجد صفحات الديموقراطية في أثينا لأن ثراسيبول قد أمكنه من جهة فرض مطالب الشعب (أي الفلاحين والحرفيين وبعض التجار) ومن ناصره من العبيد والأجانب ولكنه من جهة أخرى قد أمكنه إقناع الشعب بألا يشتط في مطالبه إلى الحد الذي يخلق حزازات وضغائن لا نهاية لها في وقت خرجت فيه أثينا والدول اليونانية عامة من الحرب ضعيفة منهكة إلى حد لم تقم لها قائمة بعده ومكن فيليب المقدوني وابنه الإسكندر من إفتراسها . ويذهب بعض الكتاب المعاصرين إلى أن الإتفاق المذكور كان بمثابة النقلة التي حلت فيها فوقية القانون أو سيادته العليا محل فوقية إرادة الشعب . ولكن المغزى الأوضح الذي يخرج من هذا الإتفاق هو أن « القانون » إنما يعني هنا العقد الذي تم بمقتضاه التراضي بين الطبقات في وقت لم يكن فيه بد من التراضي .

رذيلة أو بالأصدق أي رذيلة تعسة ؟ أن نرى عدداً لا حصر له من الناس لا أقول يطيعون بل يخدمون ولا أقول يُحكَمون بل يُستبد بهم ، لا مِلْك لهم ولا أهل ولا نساء ولا أطفال بل حياتهم نفسها ليست لهم ! أن نراهم يحتملون السلب والنهب وضروب القسوة لا من جيش ولا من عسكر أجنبي ينبغي عليهم الذود عن حياضهم ضده بل من واحد لا هو بهرقل ولا شمشون بل خنث[1] ، هو في معظم الأحيان أجبن من في الأمة وأكثرهم تأنثاً ، لا ألفة له بغبار المعارك وإنما بالرمل المنثور على الحلبات (إن وطأها) ولا هو يحظى بقوة يأمر بها الناس بل يعجز عن أن يخدم ذليلاً أقل أنثى[2] ! أنسمي ذلك جبناً ؟ أنقول أن خدامة حثالة من الجبناء ؟ لو أن رجلين ، لو أن ثلاثة أو أربعة لم يدافعوا عن أنفسهم ضد واحد لبدا ذلك شيئاً غريباً لكنه بعد ممكن ولوسعنا القول عن حق إن الهمة تنقصهم . ولكن لو أن مئة ، لو أن ألفاً احتملوا واحداً ألا نقول : إنهم لا يريده صده ليس لأنهم لا يجرأون على الاستدارة له ، لا عن جبن بل احتقاراً له في الأرجح واستهانة بشأنه ؟ فأما أن نرى لا

---

(١) يبتدع لابويسيه في هذا الموضع لفظاً فرنسياً استمده من لفظ لاتيني نجده عند شيشيرون والمؤلف المسرحي بلُوط بمعنى صيغة التصغير من رجل ، كما لو قلنا بالعربية « رجيل » . آثرنا ترجمته بكلمة « خنث » من « خنث الرجل خنثاً : كان فيه لين وتكسّر وتثنّ فكان على صورة الرجال وأحوال النساء فهو خنث » (عن المنجد) .

(٢) ثار نقاش حول من المراد بهذا الوصف : أهو شارل التاسع أو هنري الثالث ؟ ولكن الأصح أن المؤلف إنما أراد أن يرسم صورة نموذجية وإن صدقت على كثير من الحكام دحضاً للرأي القائل بأن هناك من جُعلوا بطبيعتهم للسيادة وهناك من جعلوا مسودين .

مئة ولا ألف رجل بل مئة بلد ، ألف مدينة ، مليون رجل ، أن نراهم لا يقاتلون واحداً أقصى ما يناله من حسن معاملته أي منهم هو القنـاتة والرق فأنّى لنا بإسم نسمي به ذلك ؟ أهذا جبن ؟ إن لكل رذيلة حـداً تأبى طبيعتها تجاوزه . فلقد يخشى اثنان واحداً ولقـد يخشاه عشـرة . فأما ألف ، فأما مليون ، فأما ألف مدينـة أن هي لم تنهض دفاعـاً عن نفسها في وجه واحد فما هذا بجبن لأن الجبن لا يذهب إلى هذا المدى كما أن الشجاعة لا تعني أن يتسلق امرؤ وحده حصناً أو أن يهاجم جيشاً أو يغزو مملكة . فأي مسخ من مسوخ الرذيلة هذا الذي لا يستحق حتى اسم الجبن ولا يجد كلمة تكفي قبحه والذي تنكر الطبيعة صنعه وتأبى اللغة تسميته ؟

ضع بجانب خمسين ألف رجل مدججين بالسلاح . وضع مثلهم بالجانب الآخر . دعهم يصطفون للمعركة ثم يلتحمون ، بعضهم أحرار يقاتلون دفاعاً عن حريتهم والبعض الآخر بغية سلبهم اياها . تـرى من تظنك تعِد بالنصـر ؟ من تظن أنهم ذاهبـون إلى ساحـة القتال بخـطى مقدامة ؟ من يـأملون الاحتفاظ بحـريتهم جزاءً على عنـائهم أم أولئك الـذين سواء كـالوا الضـربات أو تلقـوها لم ينتـظروا أجراً عليهـا سوى استعبـاد الغير ؟ الأولـون يضعـون دائمـاً نصب أعينهم سعـادة الحيـاة الماضية وتوقع نعيم يماثلها في المستقبل ولا يفكرون في القليل الذي تلزم مكابدته زمن المعركة بقدر مـا يفكرون فيمـا سيُفرض عليهم أبـد الدهر ، هم وأولادهم وجميع ذريتهم . فأما الآخرون فلا حافز لهم إلا وخز من الطمع لا يلبث أن يسكن أمام الخطر ولا يمكن أن يبلغ التهابه حداً لا تطفئـه أول قطرة من الـدم تنض بها جـروحهم . خذ المعـارك

المشهودة التي خاضها ميلسيادس وليونيداس وثميستوكل منذ ألفي عام[1] والتي ما زالت تحيا في صفحات الكتب وذاكرة البشر حتى اليوم كأن رحاها لم تدر إلا بالأمس على أرض الاغريق ، من أجل الأغريق ومن أجل أن تكون مثلاً للدنيا قاطبة : ما الذي في زعمك أعطى فئة قليلة قلة الاغريق إذ ذاك لا أقول القوة بل الجرأة على الصمود في وجه أساطيل بلغ من حشدها أن ناء بثقلها البحر وعلى أن يدحروا أمماً بلغ من كثرتها أن كتيبة الاغريق بأسرها ما كان يكفي جنودها تزويدَ أعدائها ولو بالقواد ليس غير ؟ ماذا سوى أن المعركة لم تكن في هذه الأيام

(١) ميلسيادس قائد أثيني تحقق بفضله أول انتصار حازه الإغريق ضد الفرس وذلك في معركة ماراتون عام ٤٩٠ ق . م . ثيميستوكل قائد آخر يرجع إلى سياسته من أجل تقوية الأسطول الأثيني ويرجع إلى براعته ونبوغه الفضل الأول في انتصار اليونانيين الحاسم في معركة سلامين البحرية عام ٤٨٠ ق . م . التي انتهت بها حملة كسركس الثانية التي كان قد أعد لها جيشاً يقدر بمئة ألف مقاتل . وأسطولاً يقدر بألف سفينة . أما ليونيداس فاسبرطي خلدّ ذكرَه استشهادُه مع ثلاثمائة من رجاله في معركة مضيق ثرموبيل التي خاضها بغية تعويق تقدم الفرس في البر . هذا ولقد صار هذا الانتصار رمزاً إلى انتصار الحرية على الإستبداد . وصحيح أن شعوب الإغريق كانت لها في إدارة شؤونها مشاركة حرمت منها في أغلب الظن شعوب العدو وأن هذا الفارق ربما لعب دوراً هاماً في هذا الانتصار . ولكن ذلك لا يمنع أن هذه الحرب أياً كان وجه استخدامها لأغراض الرمز كانت في واقع أمرها صراعاً ضارياً بين قوتين تهدف كل منهما إلى السيطرة على المعمورة : فارس وأثينا . ومن المعلوم أن المدن أو الدول اليونانية ما أن تحقق لها هذا النصر المشترك حتى عادت إلى تفرق بعد إتحاد وحتى شن بعضها الحرب على أثينا في حرب البيلوبونيز التي سبقت الإشارة إليهما .

المجيدة معركة الاغريق ضد الفرس بقدر ما كانت تعني انتصار الحرية على السيادة وانتصار العتق على جشع الاسترقاق ؟

إنا ندهش إذ نسمع قصص الشجاعة التي تملأ بها الحرية قلوب المدافعين عنها . أما ما يقع في كل بلد لكل الناس كل يوم : أن يقهر واحد الألوف المؤلفة ويحرمها حريتها فمن ذا الذي كان يسعه تصديقه لو وقف عند سماعه دون معاينته ؟ ولو أن هذا القهر لم يكن يحدث إلا في بلد أجنبي وأرض قاصية ثم تردد نبوءة أكان أحد يتردد في ظنه كذباً وافتراء لا حقيقة واقعة ؟ ومع هذا فهذا الطاغية لا يحتاج الأمر إلى محاربته وهزيمته ، فهو مهزوم خلقة ، بل يكفي ألا يستكين البلد لاستعباده . ولا الأمر يحتاج إلى انتزاع شيء منه بل يكفي الامتناع عن عطائه . فللبلد إذا أراد ألا يتحمل مشقة السعي وراء ما فيه منفعته ، كل ما يقتضيه الأمر هو الإمساك عما يجلب ضرره . الشعوب إذاً هي التي تترك القيود تكبلها أو قل إنها تكبل أنفسها بأنفسها ما دام خلاصها مرهوناً بالكف عن خدمته . الشعب هو الذي يقهر نفسه بنفسه ويشق حلقه بيده . هو الذي ملك الخيار بين الرق والعتق فترك الخلاص وأخذ الغل . هو المنصاع لمصابه أو بالأصدق يسعى إليه . فلو أن الظفر بحريته كان يكلفه شيئاً لوقفت عن حثه : أليس أوجب الأمور على الانسان أن يحرص أكبر الحرص على حقه الطبيعي[1] وأن يرتد ، إذا

---

(١) أول نص تشريعي صاغ فكرة القانون أو الحق الطبيعي هو موسوعة القانون الروماني التي قام بجمعها وتبويبها وتعريف تصوراتها الأساسية والإشراف على تحريرها ، بأمر من الإمبراطور جوستنيان ، إمامُ رجال القانون في عصره : تريبونيان . يبدأ النص بهذا التعريف : « قانون الطبيعة هو القانون الذي غرسته

صح التعبير ، عن الحيوانية ليصير انساناً ؟ ولكني لا أطمع منه في هذه الجرأة ولا أنا أنكر عليه تفضيله نوعاً آمناً من أنواع الحيـاة التعسة على أمل غير محقق في حياة كريمة . ولكن ! ولكن إذا كان نوال الحرية لا يقتضي إلا أن نرغب فيها وكان يكفي فيه أن نريد ، أكنا نرى على وجه الأرض شعباً يستفدح ثمناً ولا يعدو تمنيها أو يقبض إرادته عن استرداد خير ينبغي شراؤه بالدم ويستوجب فقدُه على الشرفاء أن تصبـح الحياة

الطبيعة في جميع المخلوقات » . تلي ذلك التفرقة بين هذا القـانون المسمى أيضاً باسم « قانون كافة الشعوب » وبين « قانون الدولة » أي القانـون الخاص بهذه الدولة أو تلك ، ثم بيان عن سبب هذه التفرقة : « إن ضرورات الحيـاة الإنسـانية بمـطالبها قـد أدت بشعوب العـالم إلى سن شرائـع معينـة : نشبت الحروب بينها وأُسر البعضُ وصار عبيداً خلافاً لقانون الطبيعة . فالناس بحسب قانون الطبيعة قد ولدوا أحراراً في البدء » . هـذا بينما « تصـدر جميع العقـود تقريباً عن قانون كافة الشعوب سواء تعلق الأمر ببيع أو إيجار أو شركة أو إيداع أو قرض أو غيره » . فكل شعب يطبق قانوناً يخصه جزء منه ويشترك بجزء آخر منه مع غيره . ولقد استعاد مفكرو العصور الوسطى الذين لم تكن فكرة الدولة عندهم قضية مسلمة لأنهم إنما كانوا يشهدون دولاً جديدة آخذة في النشوء على أنقاض الدولة الرومانية المندثرة ، إستعادوا فكرة القـانون الـطبيعي هذه لأنهم واجهوا هذا السؤال : كيف يمكن ألا يكون القانون إلا بالدولة ومن أجلها وفي ظلها وألا تكون الدولة إلا بالقانون ومن أجلهُ وفي ظله ؟ فوجدوا المخرج في التمييـز الذي فصّله بنـوع خاص القـديس تـومـاس الاكـويني بين « القـانـون الـطبيعي » و « القانـون الوضعي » . هـذا وقـد تجـدد في عصـرنـا الاهتـمـام بمناقشاتهم في هذا الباب كما في غيره ، خاصة وأن السؤال الـذي أثارهـا قد إرتبط إرتباطاً وثيقاً بسؤال آخر لا يقل عنه حدة : هل جوهر القانون هو العقل أو الإرادة ؟ .

مرة عندهم والموت خلاصاً ؟ إن الشرارة تستفحل نارها وتعظم ، كلما وجدت حطباً زادت اشتعالاً ثم تخبو وحدها دون أن نصب ماء عليها ، يكفي ألا نلقي إليها بالحطب كأنهـا إذا عدمت مـا تُهلك تُهلك نفسها وتُمسي بلا قوة وليست ناراً . كذلك الطغاة كلما نهبـوا طمعوا ، كلمـا دمروا وهدموا ، كلما مـوّناهم وخـدمناهم زادوا جـرأة واستقووا وزادوا إقبالاً على الفناء والدمار . فإن أمسكنا عن تموينهم ورجعنا عن طاعتهم صاروا ، بلا حرب ولا ضرب ، عرايا مكسورين لا شبه لهم بشيء إلا أن يكون فرعاً عَدِمت جذوره الماء والغذاء فجف وذوى .

إن الشهـام لا يخشون الخـطر من أجل الـظفر بمـطلبهم كمـا أن الأذكياء لا يحجمون عن المشقة . أما الجبنـاء والمغفلون فلا يعـرفون احتمال الضرور ولا تحصيـل الخير وإنمـا يقفون عنـد تمنيه ، يسلبهم الجبنُ قوةَ العمل عليـه ، فالـرغبة في امتـلاكه إنمـا تلصق بهم بحكم الطبيعة . هذه الرغبـة ، هذه الإرادة الفـطرية أمـر يشترك فيـه الحكيم والملتاث ويشترك فيه الشجاع والجبـان ، به يـودون تلك الأشياء التي يجلب اكتسابها السعـادة والرضى . شيء واحـد لا أدري كيف تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه : الحرية التي هي مع ذلك الخير الأعظم والأطيب حتى أن ضياعها لا يلبث أن تتبعه النواكب تترى ومـا يبقى بعده تفسده العبودية وتفقده رونقه وطمعه . الحرية وحدها هي ما لا يرغب الناس فيه لا لسبب فيما يبدو إلا لأنهم لو رغبوا فيها لنالوها ، حتى لكأنهم إنما يرفضون هذا الكسب الجميل لفرط سهولته .

يا لذل شعوب فقدت العقل ويا لبؤسها ، يا لأمم أمعنت في أذاها وعميت في منفعتها ، تُسلَبون أجملَ مواردكم وأنتم على السلب عيان ،

تَتركون حقـولَكم تُنهب ومنـازلَكم تُسـرق وتُجَـرَّد من متـاعهـا القـديم الموروث عن آبائكم ! تحيون نوعـاً من الحياة لا تملكـون فيه الفخـر بمِلْكٍ ما حتى لكأنها نعمة كبرى في ناظركم لو بقي لكم ولو النصف من أملاككم وأسركم وأعماركم ؛ وكل هـذا الخراب ، هـذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد أعدائكم بل يأتيكم يقيناً على يد العدو الذي صنعتم أنتم كبـره والذي تمشـون إلى الحرب بـلا وجـل من أجله ولا تنفرون من مواجهة الموت بأشخاصكم في سبيـل مجده . هـذا العدو الـذي يسـودكم إلى هـذا المـدى ليس لـه إلا عينـان ويـدان وجسـد واحد[1] ، ولا هو يملك شيئاً فوق مـا يملكه أقلكم على كثـرة مدنكم التي لا يحصرها العد إلا ما أسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم .

---

(1) لا شك أن لابويسيه يلمح هنا إلى نظرية أذاعها المشرعون الإنجليز في عصر أسرة تيودور مؤداها أن للملك جسدين أحدهما مادي فان والآخر غيبي لا يتطرق إليه الفناء . هذه النظرية المضحكة فيزيولوجيا كانت لها وظيفة سياسيـة بالغـة الأهمية هي إدخال التمييز بين ما يعود من الحكم إلى شخص الحاكم وما يعود إلى وظيفته أو منصبه . هذا التمييز هو الذي سمح للإنجليز بمحاكمـة الملك شارل ستوارت وإعدامه بتهمة الخيانة دون أن يذهبوا إلى إلغاء الملكية كما فعل الفرنسيون في ١٧٩٣ لأن « الملك ، كمـا قال أحـد قضاتهم ، اسم للدوام ، باق بما هو رأس الشعب وحاكمه (حسب القانـون) طالمـا بقي الشعب . . . وفي هذا الاسم لا يموت الملك أبداً » . أضف أن هذه النظرية مستقاة لا من العقائد النصرانية عن المسيح والكنيسة وحسب بـل أيضاً وأكـاد أقول أولاً من استعارة الجسد من حيث تطلق على كل مجتمع ديني أو مدني وعلى مقوماتـه المختلفة بما فيها الاتحادات المهنية والجامعية التي لعبت دوراً هاماً في تطور الغرب والتي يطلق عليها في لغاته اسم ترجمته الحرفية هي « المتجسديات » .

فأنى له بالعيون التي يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها ؟ وكيف له بالأكف التي بها يصفعكم إن لم يستمدها منكم ؟ أنى له بالأقدام التي يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم ؟ كيف يقوى عليكم إن لم يقو بكم ؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه ؟ أي قدرة له عليكم إن لم تكونوا حماةً للص الذي ينهبكم ، شركاء للقاتل الذي يصرعكم ، خونة لأنفسكم ؟ تبذرون الحب لِيُذْرِيَه . تؤثثون بيوتكم وتملأونها حتى تَعْظُم سرقاتهُ . تربون بناتكم كيما يجد ما يشبع شهواته . تنشئون أولادكم حتى يكون أحسن ما يصيبهم منه جرهم إلى حروبه وسوقهم إلى المجزرة ولكي يصنع منهم وزراء مطامعة ومنفذي رغباته الانتقامية . تتمرسون بالألم كيما يترفه في مسراته ويتمرغ في ملذاته القذرة ، وتزيدون وهنا ليزيد قوة وشراسة ويِسَمَكم بلجامه . كل هذه الألوان من المهانة التي إما البهائم لا تشعر بها أو ما كانت تحتملها يسعكم الخلاص منها لو حاولتم لا أقول العمل عليه بل محض الرغبة فيه . اعقدوا العزم ألا تخدموا تصبحوا أحراراً . فما أسألكم مصادمته أو دفعه بل محض الامتناع عن مساندته ، فترونه كتمثال هائل سُحبت قاعدتُه فهوى على الأرض بقوةِ وزنِهِ وحدها وانكسر .

بيد أن الأطباء محقون بلا شك إذ ينهون عن لمس الجروح التي لا برء منها ، ولا أظنني أسلك مسلكاً حكيماً إذا أردت أن أسدي هنا الموعظة إلى الشعب بعد أن فقد كل معرفة منذ أمد طويل وصار فقدان حساسيته بالألم دليلاً كافياً على أن مرضه قد صار مميتاً . لنحاول إذن أن نتبين لو أمكن ذلك كيف استطالت جذور هذه الإرادة العنيدة ، إرادة العبودية ، إلى هذا المدى البعيد حتى صارت محبة الحرية نفسها تبدو اليوم كأنها شيء لا يمت إلى الطبيعة بسبب .

أولاً ، إنه لأمرٌ لا أظن الشك يتطرق إليه أننا لو كنا نعيش وفاقاً للحقوق الممنوحة لنا من الطبيعة والدروس التي تُلقننا إياها لكنا طيعين للوالدين بالطبع ، خاضعين للعقل ، غير مسخرين لأي كان . فالطاعة التي يحملها كل منا لأبيه وأمه دون أن يهديه إليها إلا صوت الطبيعة أمرُ الناس جميعاً شهود عليه كلٌ عن نفسه . فأما العقل وهل يولد معنا أم لا فمسألة تقارع فيها الأكاديميون[1] ولم تتخلف مدرسة من المدارس الفلسفية عن الخوض فيها ، ولا أظنني أُجانِبُ الصوابَ الآن إذ أقول إن بنفوسنا بذرة طبيعية من العقل تزدهر في شكل الفضيلة إذا تعهدناها بالنصيحة الطيبة والقدوة الحسنة ولكنها على العكس كثيراً ما تغلبها

(١) المراد بالأكاديميين هنا هم أشياع الفلسفة الأفلاطونية في القرن السادس عشر . ففي ٣٨٥ ق . م . على أرجح التقدير أسس أفلاطون بضاحية من ضواحي أثينا مدرسة عرفت باسم الأكاديمية لوقوعها بحديقة وملعب عرفا بهذا الاسم نسبة إلى البطل أكاديموس . إستمر نشاط هذه المدرسة تسعة قرونٍ إلى أن حلها جوستينيان في ٥٢٩ ب . م . وفي القرن الخامس عشر بعد أن سقطت القسطنطينية في يد الترك وهجرها العلماء الهيللينيون سنحت للغرب معرفة المخطوطات المشتملة على محاورات أفلاطون ورسائله ، وما لبث أن ظهرت لها ترجمات متعددة . ومع هذا ظلت الجامعات تعرض عن تدريس فلسفته لغلبة الفلسفة الأرسطية عليها . لهذا عاد الفضل في نشر الفلسفة الأفلاطونية التي لم يتم انتصارها إلا في القرن السابع عشر إلى رجال عرفوا باسم الأكاديميين . ولم يكن غريباً أن يتجه أول اهتمام هؤلاء إلى مسائل الفلسفة السياسية التي إشتغل أفلاطون بها اشتغالاً لا يكاد يترك مجالاً للشك في أنه إنما أسس مدرسته بغية تكوين التلاميذ تكويناً يؤهلهم لخدمة المدينة على أفضل وجه .

الـرذائل فتخمـد وتنفق . غير أن الشيء المحقق هـو أنـه إذا كـان في رحاب الطبيعة شيء واضح ، بادٍ للعيان ولا يجوز أن نعمى عنه فذلك أن الطبيعة ، وهي وزيرة الخالق وآمرة الخلق ، قد سوتنا جميعـاً على شبه واحد حتى لكأننا ، إذا جاز التعبير ، قد صبتنا في ذات القالب ، وذلك حتى يعرف كل في الآخرين رفاقه أو بالأصدق إخوته . وإذا كانت الـطبيعة وهي تـوزع هباتهـا قد أسبغت على البعض مـزية جسـدية أو عقلية ، وإذا كانت رغم ذلك لم تتركنا في هذه الدنيا كـأننا في حقـل مغلق ولم تفوض الأقوياء والمكرة بافتراس الضعفاء كقطاع طرق أُطلق سراحُهم في الغابة فلذلك دليل على أنها إذ أعطت البعض نصيباً أكبر والبعض الآخـر نصيباً أصغـر لم تكن تهدف إلا إلى أن تتـرك المجال للتعاطف الأخوي حتى يـظهر وجـوده ما دام البعض يملك قـوة العطاء والبعض الآخر الحاجة إليه . فإذا كانت هذه الأم الطيبة قد جعلت لنـا من الأرض قاطبة سكناً وأنزلتنا جميعاً بنفس المنزل وهيأتنا على نموذج واحد كيما يتسنى لكل منا أن يتأمل نفسه ويقترب من معرفتها في مرآة الآخرين ، وإذا كانت قد وهبتنا جميعاً تلك الهبة الكبرى ، هبة الصوت والكلم حتى نزيد تعارفاً وتآخياً وحتى تتلاقى إرادتنا بالاعراب المتبادل عن أفكـارنا ، وإذا كـانت قد جهـدت بكـل السبـل حتى تـوثق عُـرى التحالف والاجتماع بيننا ، وإذا كانت قد بينت في كل ما تصنع أنها لا تهدف إلى توحيدنا جميعاً بقدر ما تهدف إلى أن نكون جميعاً آحاداً ، فقد ارتفع بذلك كل شك في أننا جميعاً أحرار بالطبيعة ، ما دمنا رفاقاً ، وامتنع أن يدخل في عقل عاقل أن الطبيعة قـد ضربت علينـا الرق بينمـا هي قد آلفت بيننا .

غير أن الحقيقة هي أن الجدل فيما إذا كانت الحرية حقاً طبيعياً أم لا لن يكون إلا تحصيلاً للحاصل ما دمنا لا نسترق كائناً دون أن نلحق الأذى بـه وما دام الغبن أكـره الأشيـاء إلى الـطبيعـة التي هي مستـودع العقل . إذن يبقى أن الحرية شيء طبيعي ويبقى بهذا عينه أننا (فيمـا أرى) لا نولد أحراراً وحسب بل نحن أيضاً مفطورون على محبة الذود عنها. فـإن اتفق بعـد ذلـك أن ســاورنــا شـك فيمـا أقـول وإن بلغ مـن فسـادنا اننـا لم نعد نستـطيع تمييـز مصالحنـا ولا مشاعـرنا الـطبيعيـة لم يبق إلا أن أكرمكم الإكرام الذي تستحقون وأن أترك الحيوانـات التي لا تمت إلى المدينة بصلة تصعد المنبر لتعلمكم ما هي طبيعتكم وما وضـع وجـودكم . إن الحيوانـات (أخذ الله بعـوني !) إذاً البشر لم يصمـوا آذانهم لسمعوها تصرخ فيهم : **عاشت الحرية !** الكثير منها لا يكاد يقع في الأسر إلا مات . فكما السمك يترك الحياة إذ يترك الماء ، كـذلك هي تترك الضوء وتأبى العيش بعد فقدان حريتها الطبيعيـة ؛ فلو كانت لها مراتب لجعلت من الحرية عنوان نبالتها . فأما البقية من أكبرها إلى أصغرها ، فهي لا تستسلم للأسر حين نقتنصها إلا بعد أن تظهر أشـد المقاومة بالأظافر والقرون والمناقير والأقدام معلنة بذلك مدى إعزازهـا لما تفقد . ثم هي تُبدي لنا بشتى العـلامات الجليلة مـدى إحساسهـا بمصابها حتى أننا لنعجب إذ نراها تؤثر الضوى على الحياة كأنها إنمـا تقبل البقاء لترثى ما خسـرت وليس لتنعم بعبوديتهـا . هل يقـول الفيل شيئاً آخر حين يقاتل دفاعاً عن نفسه حتى يستنفد قواه ويرى ضياع الأمل ووشوك الأسر فإذا هو يغرس فكيه محطماً على الشجر سنّيه ، هل يقول شيئاً آخر سوى أن رغبته الشديدة في البقاء حراً تلهمه الذكاء فتحثه على مساومة قناصيه لعلهم يتركون لـه الحريـة ثمناً لعـاجه ولعله يفتـدي به

حريته ؟ إنا نستأنس الجياد منذ مولدها لندربها على خدمتنا ، فإذا كنا مع ذلك حين نجيء إلى ترويضها نعجز عن ملاطفتها إلى الحد الذي لا يجعلها تعض الحَكَمَة وتنفر من المهماز فما هذا في اعتقادي إلا شهادة منها بأنها إنما تقبل خدمتنا كارهة لا مختارة . ما القول إذاً ؟

حتى البقر أنّ تحت النير
وشكا في أقفاصه الطير ،

كما عنّ لي قوله حينا شغلني فيه نظمنا الفرنسي[1] ، لأني وأنا أكتب إليك يا لُونجا[2] مازجاً بالكلام أشعاري التي لا أقرأها أبداً ، لا أخشى قط أن يجرك ما تبديه من الرضى عنها إلى جعلها مدعاة لفخري . خلاصة القول أنه لَمّا كانت جميع الكائنات الحاصلة على الحس تشعر إذ تحصل عليه بألم خضوعها وتسعى وراء حريتها ، ولما كانت الحيوانات وهي المجعولة لخدمة الانسان لا تستطيع أن تألف العبودية دون أن تبدي احتجاجاً يعرب عن الرغبة في الضد ، فما هي تلك الرذيلة التي استطاعت أن تمسخ طبيعة الانسان ، وهو وحده المولود حقيقة ليعيش حراً ، وأن تجعله ينسى ذكرى وجوده الأول وينسى الرغبة في استعادته ؟

هناك ثلاثة أصناف من الطغاة: البعض يمتلك الحكم عن طريق انتخاب الشعب والبعض الآخر بقوة السلاح والبعض الثالث بالوراثة المحصورة في سلالتهم .

---

(١) لا وجود لهذين البيتين في أشعار لابويسيه التي نشرها مونتني .
(٢) عضو برلمان بوردو الذي أخذ لابويسيه مقعده ، وإليه أهدى مخطوطه .

فـأما من أنبنى حقهم على الحـرب فنعلم جيداً أنهم يسلكـون ، كمـا نقول ، في أرض محتلة . وأما من ولدوا ملوكاً فهم عادة لا يفضلونهم قط لأنهم وقد ولدوا وأطعموا على صدر الطغيان يمتصون جبلة الطاغية وهم رضاع وينظرون إلى الشعوب الخاضعة لهم نظرتهم إلى تركة من العبيد ويتصرفون في شؤون المملكة كما يتصرفون في ميـراثهم ، كل بحسب استعداده الغالب نحـو البخل أو البـذخ . أما من ولاه الشعب مقاليد الدولة فينبغي فيما يبدو أن يكـون احتمالـه أهون . ولقـد يكون الأمر كذلك على ما أعتقد لولا أنه ما أن يرى نفسه يـرتقي مكانـاً يعلو به الجميع وما أن يستغويه هذا الشيء الغريب المسمى بالعظمة حتى يعقد النية على ألا يتزاح من مكانه قط . ثم أن هذا الرجل لا يلبث أن يشرع عادة في اسناد القوة التي سلمه الشعب إياها إلى أبنائه . وما أن يتلقف هؤلاء هذه الفكرة حتى نشهد شيئاً عجباً : نشهد إلى أي مـدى يبزون سائر الطغاة في جميع أبواب الرذائل بل في قسوتهم دون أن يروا سبيلاً إلى تثبيت دعائم الاستبداد الجديد سوى مضاعفة الاستعباد وطرد فكرة الحرية عن أذهان رعاياهم حتى يعفو عليها النسيان رغم قرب حضورها في ذاكـرتهم . فكلمـة الحق هي أني أرى بعضــاً من الاختـلاف بين الطغاة ولكني لا أرى اختياراً بينهم لأن الطرق التي يستولون بهـا على زمام الحكم تتعدد ولكن أسلوب الحكم لا يكاد يختلف : فمن انتخبهم الشعب يعـاملونه كـأنه ثـور يجب تذليله ، والغـزاة كـأنـه فـريستهم ، والوارثون كأنه قطيع من العبيد امتلكوه امتلاكاً طبيعياً .

فهب في هذا الموضع أن الصدفة شاءت أن يولد نمط جديد كـل الجدة من البشر ، لا ألفة لهم بالعبودية ولا ولع بالحرية ولا يعلمون ما

هذه ولا تلك بل يجهلون حتى اسميهما، ثم خيروا بين الرق وبين الحياة أحراراً ، فعلام يجمعون ؟ لا مجال للشك في أنهم سوف يؤثرون طاعة العقل وحده على خدمة رجل ما ـ هذا إلا إذا كان هؤلاء القوم هم شعب اسرائيل الذي نصب طاغياً عليه بغير إكراه ولا احتياج : وإنه لشعب لا أقرأ قصته أبداً دون أن يملكني حنق عظيم حتى لأكاد أتجرد من الإنسانية فأفرح بجميع ما نزل عليه بعدئذٍ من البلايا[1]. ولكن طالما بقي بالانسان أثر من الانسان فهو يقيناً لا ينساق إلى العبودية إلا عن أحد

(١) إشارة إلى ما ورد في العهد القديم (صموئيل الأول ، الاصحاح الثامن) من أن كل شيوخ إسرائيل اجتمعوا وجاءوا إلى صموئيل يسألونه أن يجعل لهم ملكاً يقضي لهم كسائر الشعوب (وكان يحكم إسرائيل قضاة) . فساء الأمر في عيني صموئيل فصلى إلى الرب فأمره بأن يصنع ما طلب الشعب بعد أن ينذره . فأنذره : « هذا يكون قضاء الملك الذي يملك عليكم . يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لمراكبه وفرسانه فيركضون أمام مراكبه . ويجعل لنفسه رؤساء ألوف ورؤساء خماسين فيحرثون حراثه ويحصدون حصاده ويعملون عدة حربه وأدوات مراكبه . ويأخذ بناتكم عطارات وطباخات وخبازات . ويأخذ حقولكم وكرومكم وزيتونكم أجودها ويعطيها لعبيده . ويعشّر زروعكم وكرومكم ويعطي لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وجواريكم وشبانكم الحسان وحميركم ويستعملهم لشغله . ويعشّر غنمكم وأنتم تكونون له عبيداً . فتصرخون في ذلك اليوم من وجه ملككم الذي اخترتموه لأنفسكم فلا يستجيب لكم الرب في ذلك اليوم . فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا لا بل يكون علينا ملك » . ومما يذكر أن اختيار صموئيل قد وقع بايعاز من الرب على شاول . فجعله ملكاً بأن أخذ « قنينة الدهن وصب على رأسه وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيساً » . وهكذا بدأت طقوس الدهن التي سبقت الإشارة إليها في التراث اليهودي المسيحي .

سبيلين : إما مكرهاً وإما مخدوعاً . مكرهاً إما بسلاح أجنبي مثل مدينتي اسبرطة وأثينا إذ قهرتهما قوات الاسكندر ، وإما بطائفة من مجتمعه مثلما حدث في أثينا في زمن أسبق حين استولى بيسيستراتس على مقاليد الحكم[1] . فأما الخديعة من حيث تؤدي أيضاً إلى فقدان الحرية فرجوعها إلى تغرير الغير يقل في أكثر الأحيان عن رجوعها إلى كون الناس يخدعون أنفسهم بأنفسهم . مثال ذلك شعب سيراقوصة (عاصمة صقلية) إذ هجم عليه الأعداء من كل جانب ولها فكرة عن كل شيء إلا عن الخطر الحاضر فرفع ديونيسيوس إلى الرياسة دون نظر إلى المستقبل وأسند إليه قيادة الجيش ولم يدرك إلى أي حد قوّاه إلا حين رجع هذا الداهية منتصراً كأنه قد غزا مواطنيه لا أعداءهم فتسمى

(١) كان بيستراتس ينتمي إلى الطبقة الأرستوقراطية الحاكمة . برز في الحرب بين أثينا وميغارا ، حوالي عام ٥٦٥ ق . م . فلما دب الإنقسام في أثينا بين الحكام ترأس هو فريقاً أو حزباً ثالثاً ضم إليه المعتقين والمدقعين ثم نصب نفسه طاغية بحرس منحه إياه الشعب ، عام ٥٦١ ق . م . غير أن أعداءه تحالفوا عليه فطردوه من الحكم بعد أن ظل يمارسه زهاء خمس سنوات ، فلم يستتب له الإستبداد به إلا بعد أن رجع وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً عام ٥٤٦ ق . م . مات عام ٥٢٧ بعد مرض . هذا ولقد حرص بيستراتس على الإلتزام بدستور صولون فلم يذهب إلى حد مصادرة أملاك النبلاء وتوزيعها بالتساوي ولكنه شجع صغار الملاك بتيسير القروض لهم وعمل على إزاحة البطالة من الريف معتمداً في هذه السياسة على الضرائب المفروضة على الإنتاج والتجارة في وقت إزدهرت فيه صناعة الخزف وانتشرت في كل بلاد اليونان . جمّل أثينا وجمع أشعار هوميروس ونشرها . وكان من نتائج حكمه الطويل أن أضعف قبضة النبلاء على أشياعهم وشجع ظهور الفردية في كثير من المجالات مما مهد الطريق لعودة الديموقراطية بعد أن تخلص الشعب من أبنائه .

باسم القائد ثم بالملك ثم بالملك المطلق[1] . وأنه لأمر يصعب على التصديق أن نرى الشعب متى تم خضوعه يسقط فجأة في هاوية من النسيان العميق لحريته إلى حد يسلبه القدرة على الاستيقاظ لاستردادها ويجعله يسرع إلى الخدمة صراحة وطواعية حتى ليهيأ لمن يراه أنه لم يخسر حريته بل كسب عبوديته . صحيح أن الناس لا يقبلون على الخدمة في أول الأمر إلا جبراً وخضوعاً للقوة ولكن من يأتون بعدهم يخدمون دون أن يساورهم أسف ويأتون طواعية ما أتاه السابقون اضطراراً . ذلك أن من ولدوا وهم مغلولو الأعناق ثم أطعموا وتربوا في ظل الاسترقاق دون نظر إلى أفق أبعد يقنعون بالعيش مثلما ولدوا . ثم أنه لما كان التفكير في حال مختلفة أو في حق آخر لا يطرأ على بالهم ، فهم يأخذون وضعهم حال مولدهم مأخذ الأمر الطبيعي . ومع هذا فما من وارث ألا نظر أحياناً في مستندات أبيه ليرى هل يتمتع بحقوق تَركَته كاملة أم أن غبناً قد أصابه أو أصاب سلفه . لكن لا شك أن العادة مع

---

(1) ديونيسيوس بين ٤٣٠ و٣٦٧ ق . م . تقريباً . في عام ٤٠٦ أخفقت سيراقوصة في تحرير اجريجنتا من قبضة القرطاجنيين فتسنى له إقناع مجلس الشعب بإنتخاب قواد جدد بينهم هو . ثم لم يلبث أن أزاح زملاءه وتزود بحرس خاص وظل إنتخابه على رأس الدولة يتكرر تكرراً منتظماً . سوى أنه أخفق في وقف تقدم القرطاجنيين وواجه ثورة أرستوقراطية جعلته يقبل صلحاً باهظاً مع قرطاجنة . فلما تغلب على المعارضة الداخلية عاد إلى محاربتها حتى انتصر عليها وصد غزواتها المتعددة . ثم بعدئذ وسّع سلطاته على الجزء الغربي من صقلية وعلى إيطاليا حتى إمتد نفوذه إلى الأدرياتيك . كان ديونيسيوس طاغية من الطراز الأول إتسم حكمه بمزيج من البأس والحنكة والأبهة لا زال يثير العجب حتى اليوم .

سيطرتها علينا في كل مجال لا تظهر قوة تأثيرها مثلما تظهر حين تلقننا العبودية وحين تعلمنا ، مثلما قيل عن ميثريدات الذي صار السم عنده شراباً مألوفاً[1] ، كيف نجرع سم الاسترقاق دون الشعور بمرارته . لا جدال في أن للطبيعة نصيباً كبيراً في توجيهنا حيث تشاء وأننا نولد على ما تدخره لنا من فطرة حسنة أو سيئة ، ولكن لا مناص من التسليم بأن سلطانها علينا يقل عن سلطان العادة لأن الاستعداد الطبيعي مهما حسن يذهب هباء إذا لم نتعهده ، في حين أن العادة تفرض علينا صَوْغَها أياً كان هذا الاستعداد . فالبذور التي تنثرها فينا يد الطبيعة ضئيلة واهية إلى حد لا يجعلها تحتمل أقل غذاء منافر لها ، فرعايتها لا تتم بمثل السهولة التي تتبدد بها وتفنى، شأنها شأن أشجار الفاكهة : كل شجرة

---

(١) المراد ميثريدات السادس ملك بونطوس جنوب البحر الأسود . حكم بين ١٢٠ و٦٣ ق . م . إزدحمت حياته بالأحداث العاصفة . أولها مصرع أبيه ووصية تدعو إلى الإرتياب يستخلف فيها زوجته وولديه الأصغرين . فر من أمه وظل هارباً حتى عاد فجأة إلى العاصمة سينوب فحبس أمه وقتل أخاه وتزوج أخته . ثم استأنف سياسة والده التوسعية فاستولى على معظم آسيا الصغرى وامتدت فتوحاته إلى اليونان حيث رده الرومان . وقعت بينه وبينهم عدة حروب إنتهت باستيلائهم على بونطوس وثورة الرعية وعلى رأسها إبنه فارناسس . فلما أراد الإنتحار تبين أن نظاماً من الوجبات الوقائية قد جعل له مناعة ضد السم . فمات بسيف حارس من حراسه وقد بلغ من العمر ٦٩ عاماً . لا شك أن ميثريدات كان أصلب أعداء روما عوداً في مكره وشجاعته وقدرته على تعبئة الجيوش وتنظيمها . ولكنه خلا من المهارة في التخطيط وعجز عن الاحتفاظ بولاء رعيته . ثم هو في النهاية لم يكن يمثل تمثيلاً صادقاً لا اليونانيين الذين كان يميل إليهم ويحب التشبه بهم (تدل صوره على تقليد الإسكندر) ولا الإيرانيين الذين كان يتكون منهم العنصر الغالب بين أبناء شعبه .

منها لها طبيعتها التي تؤتي بمقتضاها ثمارها إذا تركتها ولكنها تخرج عن طبيعتها وتؤتي ثماراً غريبة غير ثمارها إذا طعمتها . كذلك الأعشاب : كل عشب له خاصيته وطبيعته وتفرده ولكن البرد والجو ثم التربة ويد البستاني تعين نموه كثيراً أو تعوقه كثيراً حتى أن النبات الذي نراه في قطر لا نكاد نعرفه في قطر آخر . تخيل رجلاً رأى أهل مدينة البندقية ـ وهم قلة من الناس يعيشون أحراراً حتى ليأبى أقلهم جاهاً أن يتوج ملكاً على جميعهم ، ولدوا ونشأوا على ألا يعرف أي منهم مطمعاً إلا الادلاء بأحسن النصح من أجل الحفاظ على الحرية والسهر عليها ، تربوا منذ المهد وتشكلوا على ألا يمدوا أيديهم إلى سائر نعم الأرض مجتمعة عوضاً عن ذرة من حريتهم[1] ـ أقول تخيل رجلاً رأى هؤلاء القوم ثم ذهب بعد أن غادرهم إلى أراض ينشر عليها سلطانه من لقبناه

(١) كان مثقفو عصر النهضة يرون في جمهورية مدينة البندقية المثل الأجمل للحرية حتى أن لابويسيه كان يؤثر لو وُلد بها ، على ما يخبرنا به صديقه مونتني (**المقالات** ، الكتاب الأول ، الفصل ٢٨) . ولكن الحقيقة هي أن الأمر كان له وجهان . فالبندقية شأنها شأن جميع المراكز العمرانية الكبرى التي يؤمها التجار والصيارفة وصانعو الثروات من كل حدب وصوب كانت تتمتع فعلاً بحرية اجتماعية واسعة تتيح تجاوز الجميع على اختلاف عاداتهم وأزيائهم . أما من الناحية السياسية فقد احتكرت الحكم فيها منذ القرن الرابع عشر طبقة من الأعيان ذوي الثروات الطائلة إنقطعت صلتها بالشعب (وأعني بالأخص الحرفيين الذين كان لهم على العكس دور مهم في فلورنسه) وإن حرصت على ألا ينفرد به واحد منهم . لهذا أُسندت السلطة إلى مجلس العشرة . هذا المجلس الذي ندر أن حاذاه جهاز في إتجاهه المحافظ هو الذي كان يقوم بإنتخاب الدوج المنوط به تجسيد قوة البندقية ولكن مع قيود ترمي جميعها إلى تخفيف دوره الشخصي .

بـ مَلِك زمانه[1] ، أراض يـرى فيها أنـاساً لا يـولدون إلا لخـدمته ولا يعيشون إلا لدوام قوته ، تـرى هل يـظن أن هؤلاء وأولئك من عجينـة واحدة أن الأرجح أنه سوف يعتقد أنه قد ترك مدينة آدمية ودخل حظيرة للدواب ؟ يحكى أن ليكورج (مشرع اسبرطة[2]) قد ربى كلبين خرجا من بطن واحد ورضعا ذات الثدى ، فجعل أحدهما يسمن في المطابخ

---

(١) سلطان تركيا . ننبه إلى أن الشعوب الأوروبية كانت تتسمى في القـرن الثالث عشر باسم المسيحية أو بلاد المسيحيين ، وهي تسمية كانت تصدر عن الشعور بالوحدة الدينية التي بثته فيهـا الحروب الصليبيـة . وفي القرن الخـامس عشر ظهرت التسمية باسم أوروبا أو الشعوب الأوروبية . لا لأن هذه الشعوب كانت قـد تحققت بينهـا وحـدة سيـاسيـة ، فقـد حـدث العكس : صـارت فكـرة الإمبراطورية الواحدة أو الشاملة إدعاء لا صلة له بالواقع بينما بدأ ظهور الدول الحديثة بإنقسام الشعوب الأوروبية إلى ممـالك يحكم كل منها ملك غيور على استقلاله ، كما تدل عليه العبارة الجارية إذ ذاك : « كـل ملك إمبراطـور على مملكته » . إلا أن هذه الشعوب كان يبدو لها أن ملوكها هؤلاء وولاة الأمر فيها كانت لهم فيما بينهم وفي تعاملهم معها قواعد تختلف مما يتبعه طغاة الشرق ، ومنه كان ظهور التسمية الجديدة ينطوي على تعريف الغـرب لنفسه بـالحريـة السياسية ـ أضف إليه تقوى الشعور بالوحدة الثقافية ثم حاجة التمييز الجغرافي بالنسبة إلى الأرض المكتشفة حديثاً ، وأعني بها القارة الأمريكية . فأما نصيب هذا التعريف من الصحة أو الكذب فهذا ما يستحق أن يفرد له مبحث خاص .

(٢) ليكورج مشرع نسب إليه الإسبرطيون دستورهم ونظامهم السياسي والاجتماعي وظلوا حتى منتصف القرن الرابع ق . م . يوجهون إليه من مظاهر التبجيل ما لا يحظى به إلا الآلهة . أما العصر الذي عاش فيه فهذا ما إختلفت فيه الروايات اختلافاً تفـاوت بين القرنين التـاسع والسـادس ق . م . هذا الاختـلاف وهذا التبجيل المفرط جعل بعض الكتاب ينحون إلى الشك في وجوده محتجين أيضاً بأن الكثير من سمات نظامه تشبه السنن القبليـة البدائيـة . ولكن معظم الثقـاة

وترك الآخر يجرى في الحقول وراء أبواق الصيد . فلما أراد أن يبين لشعب لاسيدومونيا أن الناس هم ما تصنع بهم تربيتهم جاء بالكلبين وسط السوق ووضع بينهما حساء وأرنبا ، فإذا أحدهما يجري إلى الطبق والآخر وراء الأرنب . فقال ليكورج : ومع هذا فهما أخوان ! هكذا نجح بفضل قوانينه ودستوره في أن ينشىء سكان لاسيدومونيا تنشئة جعلت كلا منهم يفضل الموت ألف ميتة على أن يختار لنفسه سيداً آخر سوى القانون والعقل .

ويطيب لي هنا أن أتذكر حديثاً جرى في قديم الزمان بين أحد المقربين إلى اكسركس ملك فارس الأعظم وبين رجلين من لاسيدومونيا[1] . أخذ اكسركس ، وهو يعد جيشه الضخم لغزو اليونان ، يبعث رسله إلى المدن اليونانية يطلبون إليها الماء والتراب : وهو تعبير كان يستخدمه الفرس إشارة إلى أنهم يأمرون المدن بالاستسلام . إلا أثينا واسبرطة ، فقد تجنب أن يرسل إليهما أحداً . ذلك أن الأثينيين والاسبرطيين كان قد سبق لهم أن أمسكوا بسفراء أبيه

يتفقون على أن قواعد النظام الإسبرطي قد أرسيت في القرن السابع ق . م . وأنه ما من حجة تمنع الاعتقاد بأن إرساءها هذا كان من صنع مشرع واحد عظيم .

(1) ورد اسم لاسيدومونيا في هوميروس مرادفاً لإسبرطة . ثم غلبت دلالته الجغرافية والسياسية إذ أطلق على هذه المدينة والريف التابع لها بما هي جميعها وحدة سياسية. بينما تكثفت حول إسبرطة مستدعيات تاريخية شعرية فلم يستخدم اسمها أبداً للدلالة على الأرض دون المدينة .

داريوس فزجوا بعضهم في الحفر والبعض الآخر في الآبار قائلين : خذوا ما تريدون من الماء والتراب ! كانوا قوماً لا يطيقون ولو كلمة تمس حريتهم . غير أن الاسبرطيين بعد أن صنعوا هذا الصنيع أدركوا أنهم قد جروا على أنفسهم غضب الآلهة وغضب تالثيبيوس ، إلّه الرسل ، بنوع خاص ، فقرروا أن يرسلوا إلى اكسركس مواطنين من بينهم لِيَمْثُلا بين يديه وليصنع بهما ما يشاء انتقاماً لمن قُتِل من رسل أبيه . فتطوع رجلان ليدفعا هذا الثمن ، اسم احدهما سُبرثيوس واسم الآخر بُولس . وبينما هما في الطريق صادفا قصراً يملكه رجل فارسي اسمه هندران ، كان الملك قد عينه والياً على جميع المدن الواقعة على الساحل ، فرحب بهما أكرم ترحيب وأطعمهما بغير حساب ثم سألهما بعد أن أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث لِم يرفضان إلى هذا الحد صداقة الملك . قال : « أنظرا إليّ أيها الاسبرطيان واتخذا مني مثلاً تعلمان منه كيف يعرف الملك تشريف من استحق وتذكرا أنكما لو صرتما بين أتباعه لرأيتما من صنيعه ما رأيت وأنكما لو دنتما له بالطاعة وعرف أمركما لما خرج كلاكما عن أن يكون أميراً لمدينة من مدن اليونان » . فأجابه محدثاه : « لهذا يا هندران لأمر لا تملك فيه إسداء النصح إلينا لأنك جربت النعمة التي تَعِدُنا بها ولكنك لا تعلم شيئاً عن نعمتنا ؛ لقد ذقت حظوة الملك وأما الحرية فلست تعرف ما مذاقها ولا مدى عذوبته ، ولو فعلت لنصحتنا بالدفاع عنها لا بالرمح والدرع بل بالأسنان والأظافر » . هذا الجواب وحده هو الصدق ، ومع هذا فلا شك أن ثلاثتهم تحدثوا وفاقاً لنشأتهم ، فما كان للفارسي أن يستشعر الأسف على الحرية وهو لم ينلها قط ولا للاسبرطي أن يحتمل التبعية بعد أن ذاق الحرية .

وكان كاتو الأوتيكي [1] وهو بعد طفل تحت الوصاية كثير التردد على منزل الدكتاتور سيلاّ [2] ، يروح ويجيء متى شاء لا يُصد الباب في وجهه أبداً لكرم محتده ولما كان بينه وبين سيلاّ من أواصر القرابة . وكان معلمه يصحبه في كل زيارة على ما جرت به العادة إذ ذاك مع أبناء الأسر العريقة . ولم يلبث أن تبين له أن مصائر الناس تحسم بتلك الدار بمحضر من سيلاّ نفسه أو بأمره : البعض يُسجن والبعض يُدان ، هذا ينفي وهذا يشنق ، هذا يُطالِب بمصادرة أملاك أحد المواطنين وذاك يطلب رأسه . تبين له بالاختصار أن الأمور لا تجرى على ما ينبغي لدى مسؤول أعملته المدينة بل لدى طاغية استبد بالشعب وأن المكان لم يكن ساحة للعدل بل مصنعاً للطغيان . عندئذ قال الفتى لمعلمه : « أنّى لي بخنجر أدسه تحت ردائي فإني كثيراً ما أرى سيلاّ في حجرته قبل أن يستيقظ وإن بساعدي لقوة تكفي خلاص المدينة منه » . هذه حقاً كلمة تليق برجل من معدن كاتو ، وهكذا بدأت حياة هذا البطل

---

(١) كاتو (٩٥ ـ ٤٦ ق . م .) أحد كبار رجال الدولة الرومانية في أواخر عهد الجمهورية . عرف بصرامته وبانتصاره الذي لا يلين للمبادىء . إنضم إلى بومبي حين قامت الحرب الأهلية بينه وبين يوليوس قيصر . وانتهت به تقلبات هذه الحرب بأن حاصرته قوات قيصر وهو بأوتيكا (مدينة على الساحل الأفريقي لا تبعد عن قرطاجنة) حيث مات موتاً مشهوداً ممزقاً أحشاءه بيديه ـ كما ورد في **سير الأعلام** لبلوتارك .

(٢) سيلاّ (١٣٨ ـ ٧٨ ق . م .) هو أول قائد روماني إستغل قوته بين العسكر فاستحوذ على زمام الدولة مستهدفاً تقوية الجمهورية فيما يبدو . ولكنه في الواقع إنما رسم المثل الذي احتذاه بعد ذلك من هدموها . بلغ من إمعانه في مصادرة الأموال والنفي والإغتيال أن عم الخوف مناصريه أنفسهم .

الذي مات كريماً مثلما عاش كريماً . ومع هذا هب أنك لم تذكر الاسم ولا البلد مكتفياً بذكر الواقعة كما هي : لا شك أن الواقعة سوف تتحدث عندئذ عن نفسها بنفسها ، لسوف يستدل السامع منها أن قائل هذا القول روماني ولد بأحضان روما حين كانت روما مدينة حرة . لِمَ أقول ذلك ؟ طبعاً لا لأني أظن أن البلد والأرض يضيفان إلى الشيء ما ليس فيه ، فالعبودية مرة بكل قطر وجو والحرية عزيزة ، ولكن لأني أرى أن من سَبَق النيرُ مولدَهم جديرون بالرثاء ، فواجبنا عذرهم أو الصفح لهم إذا كانوا لا يرون ضراً في عبوديتهم ما داموا لم يروا ولو ظل الحرية ولا سمعوا عنها قط . فلو كان ثمة بلد كبلد السِمَرِيّين[1] فيما يقول هوميروس ، بلد لا تشرق عليه الشمس شروقها المألوف علينا وإنما بعد أن تفيض عليهم بنورها ستة أشهر متوالية تتركهم نياماً في الحلكة خلال النصف الآخر من السنة : من ولدوا في غياهب هذا الليل الطويل إذا كانوا لم يسمعوا البتة أحداً يتحدث عن الضوء ، هل نعجب لو أنهم ألفوا الظلمات التي ولدوا فيها دون أن يستشعروا الرغبة في النور ؟ إنا لا نفتقد ما لم نحصل عليه قط وإنما يأتي الأسف في أعقاب المسرة ودوماً

---

(١) السمريون (وبالأشورية الجمريّون الوارد ذكرهم في التوراة ، سفر التكوين) شعب أقام على شواطىء البحر الأسود حيث الاتحاد السوفييتي الآن ثم طرده السكيثيون فغار على آسيا الصغرى مقوضاً عروشها ناشراً الذعر في ربوعها إلى أن قضت عليه شيئاً فشيئاً الأوبئة وحروبه ضد الليديين والأشوريين . ولكنه يرد في الإلياذة للدلالة على شعب أسطوري يستوطن أبعد بقاع المعمورة حيث لا تشرق الشمس أبداً ، وإليه قصد أو ليس بغية إستحضار الموتى واستفسار العريف ثيريسياس الذي كان ينسب إليه العلم بالغيب . الراجح أن لابويسيه يلمح هنا إلى أسطورة أهل الكهف عند أفلاطون .

تأتي ذكرى الفرح المنقضي مع خبرة الألم . أجل أن طبيعة الانسان أن يكون حراً وأن يريد كونه كذلك ولكن من طبيعته أيضاً أن يتطبع بما نشأ عليه .

لنقل إذن أن درج الانسان عليه وتعوده يجري عنده بمثابة الشيء الطبيعي ، فلا شيء ينتسب إلى فطرته سوى ما تدعوه إليه طبيعته الخالصة التي لم يمسها التغير . ومنه كانت العادة أول أسباب العبودية المختارة : كشأن الجياد الشوامس تعض الحَكَمة بالنواجذ في البدء ثم تلهو بها أخيراً وبعد أن كانت ترجم ولا تكاد تستقر تحت السرج إذا هي الآن تتحلى برحالها وتركبها الخيلاء وهي تتبختر في دروزها ، تقول إنها كانت منذ البدأ ملكاً لمالكها وإن آباءها عاشت كذلك وتظن أنها ملزمة باحتمال الجور وتضرب الأمثلة لتقتنع بهذا الالزام وبمر الزمن تدعم هي نفسها امتلاك طغاتها إياها . ولكن الحقيقة هي أن السنين لا تجعل أبداً من الغبن حقاً وإنما تزيد الاساءة استفحالاً[1] . آجلاً أو عاجلاً يظهر أفراد ولدوا على استعداد أحسن يشعرون بوطأة الغل ولا يتمالكون عن هزه هزاً ولا يرضون أنفسهم أبداً على التبعية والخضوع بل هم مثلهم كمثل أوليس وهو يجتاب الأرض والبحر عساه يرى الدخان الذي يصعد من داره لا يمسكون قط عن التفكير في حقوقهم الطبيعية وعن تذكر من تقدموهم وتذكر وضعهم الأول . أولئك هم الذين إذ ملكوا فهماً نافذاً ورأياً بصيراً وانصقلت عقولهم لم يكتفوا كما يفعل العامة بالنظر إلى

---

(١) يتضمن النص هنا رأياً قانونياً يدحض الرأي القائل بأن أساس الحق هو العادة أو العرف . وتتأيد هذه الدلالة إذا تنبهنا إلى أن الكلمة الفرنسية التي ترجمناها بالغبن تعني حرفياً ، إذا رجعنا إلى اشتقاقها ، إنتفاء الحق أو عدمه .

مـواطيء أقـدامهم دون التفـات إلى مـا أمـامهم ومـا وراءهم ودون أن يتذكروا وقائع الماضي ليسترشدوا بها في الحكم على المستقبل وسبر الحاضر . أولئك هم الذين استقامت أذهانهم بطبيعتها فزادوها بالدراسة والمعرفة تهذيباً . أولئك لو أن الحرية امحت على وجه الأرض وتركتها كلها لتخيلوها وأحسوا بها في عقولهم وتذوقوها ذوقاً ولم يجدوا للعبودية طعماً مهما تبرقعت .

لقـد أدرك قراقـوش الترك[1] هـذا الأمـر أحسن ادراك : أدرك أن الكتب والثقافة الصحيحة تزود النـاس أكثر من أي شيء آخـر بالحس والفهم اللذين يتيحان لهم التعارف والاجتماع على كراهية الطغيـان ، دليل ذلك خلو أرضه من العلماء وبعده عن طلبهم . وفي سائر الأرض بوجه عام تظل حماسة من أخلصوا قلوبهم للحريـة وتظل محبتهم دون أن يكون لهما أثر مهما كثر عددهم لانقطاع التواصل بينهم : فالطاغية يسلبهم كل حرية : حرية العمل وحرية الكلام ولو أمكن فحرية الفكر ، فإذا هم منفردون منعزلون كل في تخيله . وعليه فما بالغ الإله الساخر مومو س[2] في سخريته إذ شهد الانسان الذي صنعه فولكان[3] فنصحه

---

(١) التعبير الفرنسي ترجمته الحرفية التركي الكبير ولكنه ينطوي على استخفاف ، ثم إن حامله كان يعد الرمز الأول للطغيان . ولا يُكَذِّب كلامَ لابويسيه هنا وإن لم يكف في تأييده ما يخبرنا به الدكتور إبراهيم سلامة في رسالته المقدمة إلى السوربون عام ١٩٣٩ عن **التعليم الإسلامي في مصر** من أثر سياسة الأتراك في القضاء على المدارس .

(٢) هذا الإله الساخر شخصية مسرحية أكثر منه خلق أسطوري .

(٣) فولكان إله النار والحدادة . هيفايستوس عند اليونان .

أن يضع أيضاً بقلب صنيعه نافذة صغيرة لكي تتسنى رؤية أفكاره من خلالها . ولقد قيل إن بروتوس وكاسيوس[1] حين شرعا في تحرير روما أو بالأصدق في تحرير العالم أجمع أبيا أن يشركا شيشرون وهو المدافع المنقطع النظير عن المصلحة العامة فيما عقدا العزم عليه إذ كان من رأيهما أن قلبه أضعف من أن يثبت في هذا الموقف العصيب ، كانا يثقان في صدق إراداته دون أن يضمنا شجاعته . وإن لفي وسع من أراد استقراء وقائع الماضي وسجلات التاريخ أن يتحقق أن من رأوا بلدهم تُساء سياسته وتستحوذ عليه أياد جانية فعقدوا العزم على تحريره بنية صادقة مستقيمة لا تردد فيها قل ألا يحالفهم النجاح وأن الحرية تساندهم في الدفاع عن قضيتها . أنظر هارموديوس وأرسطجيتون وثراسيبول وبروتوس الأقدم وفالريوس وديون[2] : لقد كان عملهم ناجحاً مثلما كان فكرهم فاضلاً لأن الحظ لا يكاد يتخلى أبداً في مثل هذه القضية عن مناصرة الإرادة الطيبة . كذلك نجح بروتوس الأصغر

---

(١) بروتوس وكاسيوس قاتلا يوليوس قيصر .

(٢) هارموديوس وأرسطوجيتون شابان أرادا قتل هيبياس الذي تولى حكم أثينا مع أخيه بعد موت أبيهما بيسيتراتوس (أنظر هامش ١٤) ولكنهما أخفقا وماتا شر ميتة . رأى الأثينيون في موتهما استشهاداً وأشادوا بذكرهما ملقبين إياهما بلقب مانحي الايسومونيا ـ وهو المساواة أمام القانون . عن ثراسيبول أنظر الهامش ٤ . أما بروتوس الأقدم وفالريوس فكانا بين مؤسسي الجمهورية الرومانية . أما ديون فكان صهراً لديونيسيوس الأول الذي سبق ذكره (هامش ١٥) . أراد أن يجعل من ابنه ديونيسيوس الثاني ملكاً فيلسوفاً متأثراً في ذلك بعلاقته بأفلاطون والأكاديمية . فلما أخفق خلص البلد منه ولكن زمام الأمور أفلت من يده فأشتد وتعسف رغم ادعائه الاستناد إلى المبادىء الفلسفية حتى قتل بدوره .

وكاسيوس في رفع العبودية وإن كانا إذ استرجعا الجمهورية قد خسرا الحياة خسارة لا تحط من شأنهما (فأي سبة هذه أن تنسب الحطة إلى أمثال هؤلاء القوم سواء في الحياة أو في الممات !) بل خسارة عانت منها الجمهورية أكبر الضرر وعانت اليؤس أبد الدهر واندثرت اندثاراً كأنها قد دفنت بدفنهما . فأما ما تلا ذلك من الحركات الموجهة ضد الأباطرة الرومانيين فلم تكن إلا مؤامرات حاكها قوم طامحون لا يستحقون الرثاء على سوء مآلهم فقد كان من الواضح أن مطلبهم لم يكن تقويض العرش بل زحزحة التاج ، مدعين طرد الطاغية مع الابقاء على الطغيان . هؤلاء قوم ما كنت نفسي أود لهم نجاحاً وإنه ليسرني أنهم قد ضربوا بأنفسهم المثل على أن اسم الحرية المقدس لا يجوز استخدامه مع اعوجاج القصد .

ولكني لكي أعود إلى موضوعنا الذي كاد يغيب عن نظري أقول أن السبب الأول الذي يجعل الناس ينصاعون طواعية للاستعباد هو كونهم يولدون رقيقاً وينشأون كذلك . إلى هذا السبب يضاف سبب آخر : أن الناس يسهل تحولهم تحت وطأة الطغيان إلى جبناء مخنثين . ولكن أشكر أبا الطب هيبوقراط إذ فطن إلى ذلك وعبر عنه أحسن تعبير في كتابه **المُعَلّى عن الأمراض** . لقد كان هذا الرجل يملك يقيناً في جميع أحواله قلباً يزخر بالمروءة ، أبدى ذلك حين أراد ملك الفرس بعلاج الأجانب الذين يريدون موت الأغريق وراح يخدمه بفنه بينما هو يريد اخضاع بلادهم . ولا يزال خطابه المرسل إلى ملك الفرس ماثلاً إلى يومنا هذا بين سائر كتاباته ، يشهد مدى الدهر على قلبه الطيب وطبيعته النبيلة . من المحقق إذاً أن الحرية تزول بزوالها الشهامة . فالقوم

التابعون لا همة لهم في القتال ولا جلد ، إنهم يـذهبون إلى الخطر كـأنهم يشدون إليـه شداً ، أشبه بنيام يؤدون واجبـاً فرض عليهم ، لا يشعرون بلهب الحرية يحترق في قلوبهم ، هـذا اللهب الذي يجعـل المرء يزدري المخاطر ويود لو اكتسب بروعة موته الشرف والمجد بين أقرانه . إن الأحرار يتنافسـون كلٌ من أجـل الجماعـة ومن أجل نفسـه وينتظرون جميعاً نصيبهم المشترك من ألم الانكسار أو فرحة الانتصار ، أما المُستعْبَدون فهم عدا هذه الشجاعة في القتال يفقدون أيضـاً الهمة في كل موقف وتسقط قلوبهم وتخور وتقصر عن عظيم الأعمال . وهذا أمر يعلمه الطغاة جيداً ، فهم ما أن يروا الناس في هـذا المنعطف إلا عاونوهم على المضي فيه حتى يزيدوا استنعاجا .

لقـد وضع كْسِينُـوفُـون[1] ، وهـو مؤرخ جـاد من أئمـة المؤرخين اليونانيين ، كتاباً تخيل فيه حواراً بين سيمونيد وبين طاغيـة سيراقـوصة هيرون حول كروب الطاغية . هذا الكتاب مليء بنظرات نقـدية طيبـة جادة وان اتسمت مع ذلـك في رأيي بأقصى مـا يمكن من اللطف. ليت طغاة الأرض وضعوا هذا الكتاب نصب أعينهم أنّى وجدوا لتكون لهم منه مـرآة لهم ! فلو فعلوا لبتينوا رذائلهم ولأخجلتهم مسـاعيهم . في هـذا

---

(1) عاش كسنوفون بين ٤٣٧ و ٣٥٤ق . م . وضع كتباً كثيرة ربما كان أشهرها دفاعه عن سقراط . انفرد باهتمامه بالقضايا المالية والاقتصادية . أمـا الكتاب الـذي كتبه في شكل حوار كما ينبغي لرجل تتلمذ على سقراط فيشير عنوانـه هيرون إلى طاغية فتح بلاطه للشعراء والفلاسفة بينما زادته انتصاراته في الألعاب صيتاً على صيت . مات عام ٦ / ٤٦٧ ق . م . وكان سيمونيـد ، وهو طـاغية آخر حكم جزيرة رسيوس ، قد زاره بسيراقوصة عام ٤٧٦ ق . م .

الحوار يصف كسينوفون كرب الطغاة إذ يضطرهم الأذى الذي يلحقونه بـالنـاس جميعـاً إلى خشيتهم جميعـاً قـائـلاً بين مـا يقـول إن الملوك الفاسدين يستخدمون المرتزقة الأجانب في شن الحروب فَرَقـاً من ترك السلاح في أيدي رعاياهم الذين أمعنوا في غبنهم . (هذا وإن يكن من الصحيح أن التاريخ قد شهد بين الفرنسيين أنفسهم وفي الماضي أكثر منه في الحاضر ملوكاً صالحين جندوا جيوشاً من الأمم الأجنبية لا عن حذر بل حرصاً على بني وطنهم وتقديراً منهم أن خسـارة المال يبخس ثمنهـا في سبيل صيـانة الأرواح عمـلاً بما يسنـد إلى سيبيون ، وأظنـه الافريقي[1] ، من قوله أنه يفضل لو أنقـذ مواطنـاً على أن يدحـر ألف عـدو) لكي الشيء المحقق هو أنـه مـا من طـاغيـة يـظن أبـداً أن السلطان قد استتب له إلا أن يبلغ تلك الغاية التي هي تصفية المأمورين بأمره من كل رجل ذي قيمة ما . بحيث يحق لنا أن نوجه إليه التقـريع الذي يفخر تيراسون في إحدى مسرحيات تيرانس بتوجيهه إلى مروض الأفيال :

ألأنك تأمر الأنعام ، تجرؤ هذه الجرأة[2] ؟

بيد أن هذا التحايل من قبل الطغاة على التغرير برعاياهم لا يمكن أن يتجلى على نحو يفوق تجليه فيما صنـع كسرى إزاء الليـديين[3] إذ

---

(١) حمل كثير من رجال الدولة الرومانية اسم سيبيون . لقب أحدهم بالافريقي لأنه فتح افريقية .

(٢) من مسرحية **الخصيّ** ، الفصل الثالث ، المشهد الأول .

(٣) المراد كسرى الأكبر الذي أسس الامبراطورية الفارسية في القرن السادس قبل الميلاد وليديا من ممالك آسيا الصغرى .

دحرهم واستولى على عـاصمتهم سارد وأسـر كريسـوس ملكهم الذي ضربت بثرائه الأمثال وعاد به إلى بلاده فبلغه أن أهل سارد قد ثاروا . وكان يسعه سحقهم إلا أنه رغب عن تدمير مدينة فاق جمالها الأوصاف ثم هو لم يكن يريد أن يجمد بها جيشاً لحراستها . فتفتق ذهنه عن حيلة كبيـرة توصـل بها إلى مـأربه : فتـح دور الـدعـارة والخمـر والألعـاب الجمـاهيريـة ونشر أمـراً يحض السكان على الاقبـال على هـذا كله . فكانت له من هذه الحيلة حامية أغنته إلى الأبد عن أن يسل السيف في وجـه الليديين . فقـد انصرف هؤلاء المسـاكين البؤساء إلى التفنن في اختـراع الألعاب من كـل لـون وصنف حتى أن الـلاتينيين اشتقـوا من اسمهم الكلمة التي يدلون بها على اللهو فقالوا **لودي** وكأنهم يريدون أن يقولوا **ليدي** . صحيح أن الطغاة لم يعلنوا جميعاً عما يسعون إليـه من تخنيث الشعوب . ولكن ما فعله هذا صراحـة يتوخـاه معظم الآخـرين خفية . والحقيقة هي أن تلك طبيعة العامة الذين تضم المـدن القسط الأوفر منهم ، فهم شكاك فيمن أحبهم ، سذج حيال من خدعهم . فلا تظنن أن ثمة عصفوراً يسهل اقتناصه بالصفافير[1] أو سمكة تهـرع إلى الطعم بمثل العجلة التي تسرع بها إلى العبودية كل الشعوب منجذبة ، كما نقول ، بأقل زَغَبة تقرب فاها . وإنه لأمر عجيب أن تراها تندفع هذا الاندفاع ، يكفي فيه مجرد زغـزغتها . المسـارح والألعاب والمسـاخر والمشاهد والمصارعون والوحوش الغريبة والميداليات واللوحات ، هذه وغيرها من المخدرات كانت لدى الشعوب القديمة طعم عبوديتها وثمن حـريتها وأدوات الاستبـداد بهـا . هـذه الـوسيلة وهـذا المنهـج وهـذه

---

(1) طريقة في اصطياد العصافير تقوم في استدراجها بالصفير لها على نحو معين .

المغريات هي ما تذرع به الطغاة القدامى حتى تنام رعيتهم تحت النير . هكذا تأخذ الشعوب المخدوعة إذ تروق لها هذه الملاهي وتتسلى بلذة باطلة تخطف أبصارها في تعود العبودية بسذاجة تشبه سذاجة الأطفال الذين تخلب لبهم الكتب المصورة فيحاولون فك حروفها ولكن بتخبط أكبر . واكتشف الطغاة الرومانيون إكتشافاً آخر فوق هذا كله : موائد العشرات[1] يكثرون من الدعوة إليها في الأعياد تمويهاً على هؤلاء الرعاع الذين لا ينقادون لشيء مثلما ينقادون للذة الفم والذين ما كان يستطيع أشدهم مكراً وأقربهم إلى أسماعهم أن يترك وعاء حسائه ليسترجع حرية جمهورية افلاطون . كان الطغاة يجودون برطل من القمح ونصف لتر من النبيذ وبدرهم وكان أمراً يدعو إلى الحسرة أن يعلو عندئذ الهتاف : **عاش الملك !** فما كان يخطر على بال هؤلاء الأغبياء أنهم إنما كانوا يستردون جزءاً مما لهم ، وحتى هذا الجزء ما كان الطاغية ليجود به عليهم لولا سبقه إلى سلبهم اياه . من يلتقط اليوم الدرهم ويأكل حتى التخمة مسبحاً بحمد تيبريوس ونيرون وبسخاء عطائهما لا ينبس بحرف يزيد عما ينبس به الحجر ولا تصدر عنه خلجة تزيد عما يصدر عن الجذع المقطوع حين يرغم غداً على أن يترك أملاكه لجشع هؤلاء الأباطرة المفخمين وأطفاله لشهواتهم ، لا بل دمه نفسه لقسوتهم . ذلك كان شأن الشعب الجاهل دائماً : مفتوح الذراعين مستسلمٌ للذة التي كانت الأمانة تقضي بالإمساك عنها ، فاقد الاحساس بالغبن والألم اللذين كانت الأمانة تستدعي الشعور بهما .

---

(١) موائد يلتف حولها أفراد الشعب عشرة حول كل مائدة .

إني لا أرى اليوم أحداً يسمع حديثاً عن نيرون إلا ارتعد لمجرد ذكر اسم هذا المسخ الكريه ، هذا الوباء الشنيع القذر الذي لوث العالم أجمع ، ومع هذا فلا سبيل إلى إنكار أن هذا السفاح ، هذا الجلاد ، هذا الوحش الضاري حين مات ميتة لا تقل خزياً عن حياته[1] قد أثار بموته هذا حزن الشعب الروماني النبيل الذي راح يتذكر ألعابه وولائمه حتى أوشك على الحداد ـ هذا ما كتبه كورنيليوس تاسيت ، وهو مؤلف جاد محقق في طليعة من يوثق بهم[2] . ولا أظننا سنعجب لذلك كثيراً إذا تذكرنا ما صنعه هذا الشعب من قبل حين مات يوليوس قيصر الذي استهان بالقوانين وبالحرية معاً والذي لا أرى في شخصه مزية ما لأن انسانيته التي كثر الحديث عنها في كل معرض ومقام كانت أبلغ ضرراً من قسوة الوحوش الضارية ، فالحقيقة هي أن هذه الحلاوة المسمومة هي التي سكّرت طعم العبودية لدى الشعب الروماني ، ولكنه ما أن مات حتى شرع هذا الشعب ولمّا تزل ولائمه بفمه وعطاياه بذاكرته في تكريمه وتكديس المقاعد المنتشرة في الميدان العام ليوقد منها النار التي تحوله تراباً ثم بنى له نصباً تذكارياً ملقباً إياه بأبي الشعب (هذا ما جاء بعالية النصب) وأبدى له من مظاهر التشريف ميتاً ما لم يكن ينبغي

---

(١) فر نيرون من روما بعد أن تمرد عليه حكام الأقاليم ولفظه الشعب بجميع طبقاته . فلما لحق به مطاردوه انتحر في مخبئه وهو يولول غير مصدق لما يحدث له ، هكذا كان مبلغ فتونه بنفسه .

(٢) وصف دقيق لهذا المؤرخ الذي ولد عام ٥٦ بعد الميلاد ولا نعلم على التحقيق متى مات . تقلب في أرفع المناصب وكتب كتباً كثيرة أشهرها المعروف باسم **التواريخ** ، وصف فيه الحرب الاهلية بما زخرت به سواء من المطامع والمؤامرات أو من أمثلة الشجاعة والصداقة وصفاً لا يدانى في قوته .

ابـداؤه لحي إلا إذا أردنـا أن نستثني قـاتليـه[1] . ثم لقب وكيـل

---

(1) وصف المؤرخ سويتون جنازة قيصر في كتابه حياة القياصرة الأثنى عشر فقال : « فلما أعلن عن موعد الجنازة نصبت المحرقة في ميدان مارس (إله الحرب) بجانب قبر يوليا (ابنة قيصر) وشيد تجاه منصة الخطابـة مبنى مطلي بـالذهب على طراز معبد فينوس الوالدة ، وضع بـه سريـر من العاج غـطى بالأرجـوان والذهب ، ووضعت على رأس السرير شارات انتصارات قيصر مع الثياب التي كان يرتديها حين قتـل . ولما تبين أن اليـوم كله لن يكفي مرور النـاس الذين اصطفوا حاملين قرابينهم صدر قرار بأن يحمل كل من شاء قرابينه إلى ميـدان مـارس متبعاً أي طـريق كان دون الانتـظام في الصف . وفي خـلال الألعـاب الجنائزية تغنى الناس بالأشعار التي تثير الشفقة على قيصر والنقمة على قاتليه مثل هذا البيت . . « أوجب أن ينقذهم ليصبحوا قاتليه ؟ » وأبيات أخرى بنفس المعنى . . واكتفى القنصـل أنطونيـو (مارك) في رثـائه بـأن طلب إلى أحـد المنادين أن يقرأ مرسوم مجلس الشيوخ الذي أسبغ على قيصر بالإجماع كـل التشريفات الإلّهية والانسانية وكذلك العهد الذي كان جميع الشيوخ قد أقسموا فيه على الذود عن حياة قيصر . ولم يضف هـو إلا كلمات قليلة . ثم بعـدئذ حَمـل النعشَ إلى الميدان أمـام منصة الخـطابة عـدد من كبار رجـال الـدولـة الحاضرين والسابقين . وكان البعض يرى حرقة في معبد جوبيتر على الكابيتول والبعض الأخر في مجلس الشيـوخ . وإذا برجلين تمنطق كلاهما بسيف وحمل بيده رمحاً يشعلان فيه النار فجأة بشموع موقدة . ولم يلبث جمهور المشيعين أن كدس حوله الحطب والمقاعد ومنصات القضاة ثم جميع الهدايا التي وسعه أن يجدها . بعدئذ خلع لاعبوا المزامير والممثلون ثياب الاحتفال بالنصر التي كانوا قد ارتدوها لهذه المناسبة وزجوا بها في النار كما زج قدماء الجنود الذين حاربوا تحت لوائه بالأسلحة التي كانوا قد تزينوا بها للمشاركة في جنازته . لا بل أن عدداً كبيراً من الأمهات رمت في النار حليها وحلى أطفالهم وعباآتهم . إلى جانب هذه المظاهر العامة التي تجلى فيها حزن الجمهور أدت الجاليـات الأجنبية مراسم الحداد ، كل جالية على حدة حسب طقوسها وبخاصـة اليهود

الشعب[1] ، هذا أيضاً لم ينس الأباطرة الرومان التلقب به الواحد بعد

الذين ذهبوا إلى حد التجمع حول قبره ليالي متعددة (لأن قيصر هو الذي هزم بومبي الذي كان قد استولى على القدس)

« وبعد أن أنتهت الجنازة على الفور شيد لـه العامة عموداً من مرمر نـوميديـا بلغ ارتفاعه نحو العشرين قدماً ونقش عليه : إلى أبي الوطن » .

(١) لقب وكيل الشعب يحتاج إلى بعض الايضاح . ذلك أن رومولوس كان قد قسم الشعب الروماني تقسيماً إدارياً وليس على أسـاس صلات الـدم أو الرحم إلى عشـر قبائـل يترأس كـلا منها عشـرة آباء ، أو شيـوخ ويتكـون من مجمـوعهم المجلس المعروف بهذا الاسم . أما الملك فلم يكن يتولى الحكم بالوراثة بل يستخلفه سابقـه . فإن مـات السابق دون أن يستخلف أحـداً تناوب الشيـوخ الحكم إلى أن يختـار الشعب ملكاً بشـرط أن يوافق الشيـوخ على اختيـاره . وكانت سلطة الملك أو بالأدق إمارته المدنية (امبريوم) إمارة مطلقة تشمل حق السلم والحرب وحق الحياة والموت على جميع سكان المدينة . ثم هي كانت لا تنفصل عن امارته الدينيـة (آوسبيسيوم) التي تبيـح له حق استشـارة الآلهة لمعرفة مشيئتهم في شؤون السياسة والحرب والقضاء . وفي القرن الخامس قبل الميلاد سقط النظام الملكي وحلت محله « الجمهورية » (أنظر الهامش ٢) . ولكن جميع الوظائف القيادية في إدارة الدولة ظلت بيد الشيوخ وأسرهم فنجم عن ذلك شقاق هدد انصداع الأمة كلها لـولا أن العامة ظفرت بحق انتخـاب وكلائها الذين يتحدثون باسمها دفاعاً عن مصالحها . ولم يكن هؤلاء الوكـلاء يشاركون في الحكم مشاركة ايجابية ولكنهم كان في مستطاعهم حماية شـرف العـامة ومصـالحها بممـارسة حق الفيتـو إزاء جميع القـرارات الاداريـة وإزاء القوانين التي يصدرها مجلس الشيوخ على السواء . هذا ولقـد كانت الكلمـة اللاتينية التي ترجمناها بالوكيل (تريبونوس) مشتقة من كلمة تريبـوس بمعنى قبيلة لأن كل قبيلة كانت تختار وكلاءها ـ ويقال أيضاً لبعضهم ماجستير ، ومعناه كل موظف في جهاز الدولة وأن غلب بعد ذلك اطلاقه على القضاة خاصة .

الآخر لِما كان لهذه الوظيفة من الحرمة والقداسة ثم لأن القانون اقتضاها للدفاع عن الشعب وحمايته في ظل الدولة . بذا أرادوا اكتساب ثقة الشعب كأنما كان هم هذا الأخير هو سماع الاسم لا الشعور بنتائجه . وما يُحسن عنهم صنعاً طغاة اليوم الذين لا يرتكبون شراً مهما عظم دون أن يسبقوه بكلام منمق عن خير الجماعة وعن الأمن العام : لأنك تعلم حق العلم ، يا لونجا[1] ، ثبت الصيغ المحفوظة التي يريدون بها تغذية فصاحتهم وإن جانبت الفصاحة غالبيتهم لنفورها من وقاحتهم . كان ملوك آشور ومن بعدهم ملوك ميديا لا يظهرون علانية إلا بعد وقت متأخر بقدر المستطاع ليتركوا الجمهور في شك أهم بشر أن شيء يزيد وليُسّلِموا لهذه الأحلام أناساً لا ينشط خيالهم إلا حيث يعجزون عن الحكم على الأشياء عياناً . هكذا عاشت في ظل الامبراطورية الآشورية شعوب متعددة ألفت خدمة هذا السيد الغامض وخدمته طائعة بمقدار جهلها أي سيد يسودها ، لا بل هي كانت لا تكاد تعلم إن كان لمثل هذا السيد وجود فخشيت جميعها بعين الاعتقاد واحداً لم يره أحد قط . كذلك ملوك مصر الأوائل كانوا لا يظهرون علانية إلا وقد حملوا على رؤوسهم حيناً قطاً وحيناً فرعاً وحيناً ناراً ، تقنعوا بها وتبرجوا كالمشعوذين وبذا أثاروا بغرابة المنظر المهابة والاعجاب في نفوس رعاياهم ، وكان أجدر بالناس لولا فرط حمقهم وعبوديتهم ألا يروا في

---

(1) كان لونجا ـ وهو عضو برلمان بوردو الذي أخذ لابويسيه مكانه ، يعلم بطبيعة الحال نصوص القرارات والمراسيم الملكية التي لم يكن يخلو واحد منها من نفاق التعلل بالخير المشترك والمنفعة العامة .

هذا كله ، على ما أعتقد ، إلا مدعاة للهو والضحك (١) . إنه لأمر يدعو إلى الرثاء أن نسمع بأي الوسائل تذرع الطغاة حتى يؤسسوا طغيانهم وإلى أي الحيل التجأوا دون أن تتخلف الكثرة الجاهلة في كل زمان عن

---

(١) كان ملوك مصر القديمة ـ وكذلك ملوك آشور ـ شيئاً يزيد على البشر فعلاً ، كما يقول لابويسيه . كان فرعون أقرب إلى الشمس منه إلى سائر الخلق : فهو ابن رع ، وإلى السماء منه إلى الأرض : فهو حوريس المحلق فوق القبة الزرقاء ، وكانت له بعد الممات حياة يُبعث إليها في شكل أوزيريس . ثم هو كان الوسيط بين الآلهة والبشر ، يضمن لأولئك أداء الفرائض ولهؤلاء الرغد والعدالة والنصر . لذا سمي حكمه حكماً ثيوقراطياً أو ربوبياً (ثيو : باليونانية = إله أو رب) . وكان حصول هذه المكانة فيه يتحقق بطقوس من نوع ما يسمى في الانثروبولوجيا بطقوس الانتقال ، يدبرها الكهنة تدبيراً دقيقاً ، أهمها عدا التزيية والتوبيج التطهير بالماء والدهن بالزيت ؛ ومنه سمى الملك في المسيحية بعد أن انتقلت إليها بعض هذه الطقوس عبر التوراة باسم « دهين الله » . هذا ألا أن القيمة الكبرى التي كان يعلقها قدماء المصريين على الإلّهة مَعَت (الحقيقة والعدالة) كانت تحول دون جنوح الحكم الفرعوني إلى ما يسمى بالحكم المطلق ، وإن تكن هذه القيمة قد بقيت في صورة العرف دون أن تتخذ شكل التشريع . أضف أن هذه المكانة التي كان فرعون يعلو بها سائر البشر لم تكن تُضفى عليه من حيث وجوده الفردي البيولوجي بل من حيث وظيفته العامة . لذا يخطىء القارىء إذا ظن أن هذه التعلية قد امحت اليوم آثارها بفضل التقدم . فلفظ فرعون نفسه لفظ مركب من كلمتين تعنيان بالمصرية القديمة البيت الكبير ، مثلما نقول اليوم البيت الأبيض أو الاليزيه دلالة على رؤساء الدول المعاصرين . أما الأغاني التي كانت تصحب طقوس الدهن أو التتويج ، كهذه الأغنية : « ليفرح البلد كله فقد جاء الزمن السعيد . علا سيد جميع الأراضي . . والغمر فاض والنهار طال . الليل انضبطت ساعاته والقمر يرجع في مواقيته » . فهل من ينكر أن التغني بالحكام من شيم الشعوب ؟

ملاقاتهم فلا يرمون شبكة إليها إلا ارتموا فيها وخلا تغريرهم بها من المشقة حتى أنهم إنما ينجحون في خداعها أكبر النجاح حين يسخرون منها أكثر السخرية .

ثم ماذا أقول عن محرقة أخرى تلقفتها الشعوب القديمة كأنها نقد لا زيف فيه ؟ لقد دخل في اعتقادها أن إبهام بيرّوس[1] ملك الإيبيرّيين كان يصنع المعجزات ويشفي أمراض الطحال ، ثم جمّلوا القصة فأضافوا أن هذا الاصبع قد ظهر سليماً وسط الرماد لم تصبه النار بأذى بعد أن احترق الجسد كله . هكذا يصنع الشعب نفسه الأكاذيب كيما يعود ليصدقها . هذه الحكايات قد سجلها كثير من الناس ولكن على نمط لا يترك مجالاً للشك في أنهم لم يعدوا نقلها عما تردد في جلبة المدن وعلى أفواه العامة . منها أن فاسباسيان[2] رجع من آشور فمر

(١) بيروس (٣١٩ ـ ٢٧٢ق. م .) هو أشهر ملوك ابيروس بجوار مقدونيا . بهر معاصريه ببراعته في فنون الحرب والقتال وبمهارته الانتهازية في مجال السياسة ولكنه لم يحقق نصراً دائماً . وربما كان أهم آثاره أنه حول ابيروس إلى دولة قوية مندمجة اندماجاً تاماً في العالم الهلليني .

(٢) ولد فسباسيان عام ٩ . كان أبوه جابياً للضرائب وكانت أسرة أمه تنتمي إلى ما كان يسمى في روما بطبقة الفرسان وهي طبقة تقل درجة عن طبقة الشيوخ وإن يكن أخوها قد دخل مجلسهم . تقلب في أكبر مناصب الدولة المدنية والعسكرية ثم لما احتدم الصراع حول خلافة الامبراطور جالبا أعلنت فرقتان رومانيتان بالاسكندرية اختيارهما له امبراطور في الأول من يوليه عام ٦٩ ولم يلبث أن حذت حذوها الجيوش الرومانية في فلسطين وسوريا . كان ذا طاقة كبيرة على العمل متواضعاً في حياته محباً لأسرته حباً أنحرف إلى المحاباة حتى أنه استخلف ولديه كالمتبع في ممالك الشرق وبخلاف المتبع في روما . وربما

بالاسكندرية متوجهاً إلى روما فصنع في طريقه المعجزات : قوّم العرج ورد البصر إلى العمى وأتى عجائب أخرى من هذا القبيل لا يغفل في رأيي عن زيفها إلا من أصابه عمى يغلب عمى الذين ينسب إلى فاسباسيان شفاؤهم . إن الطغاة أنفسهم يعجبون لقدرة الناس على احتمال ما يصبه على رؤوسهم من الاساءة انسان مثلهم ، لهذا احتموا بالدين واستتروا وراءه ، ولو استطاعوا لاستعاروا نبذة من الألوهية سنداً لحياتهم الباطلة . إليك بسالمونيوس[1] الذي تروى العرافة في ملحمة فرجيل أنه يرقد الآن في قاع الجحيم عقاباً له على هزئه بالناس إلى حد جعله يريد تقمص جوبيتر أمامهم :

لحقه شديد العذاب إذ ابتغى .
محاكاة جوبيتر رعده وصواعقه ،

كان أعظم منجزاته إنهاء الحرب الأهلية ونشر السلام . هذا ولقد كان الاعتقاد بقدرة الملوك على اتيان الشفاء لا يزال سارياً في عصر لابويسيه في فرنسا وانجلترا على السواء . كان المرض بالتحديد هو البرص وكان الشفاء يتم بلمس المواضع المصابة ورسم علامة الصليب تتلوه صدقة نقدية . وكان المفروض أن هذه الكرامة تدخل فيما يحصل للملك بفضل طقوس الدهن . ولم يبطل هذا الاعتقاد لأن الوقائع كذبته فكون العلة تدخل في سجل الوهم لا يمنع قدرتها على إحداث نتائج تدخل في سجل الواقع ولكن بفضل الثورات السياسية التي بدأت في انجلترا وفرنسا .

(١) ورد ذكر سالمونيوس في النشيد السادس من ملحمة فرجيل عن وقائع اينيه على أنه إليدا في شمال شبه جزيرة اليونان قريباً من البحر الأيوني . يتردد في هذه القصة صدى الطقوس السحرية المبنية على تقنية المحاكاة : كقرع الطبول استثارة للرعد .

فشد أربعة جياد صواهل إلى عربته الفانية .
ثم علاها ممسكاً بشعلة من النار الساطعة .
وجرى في سوق إليدا ناثراً الرعب بين سكانها .
المجنون أدعى ملك السماء وادعى بالصاج .
محاكاة الرعد الذي يأبى دويه المحاكاة !
ولكن جوبيتر رماه بالصاعقة الحقة .
فقلب عربته في زوبعة من النار .
غطتها هي وجيادها وربها وصاعقته .
كان النصر قصيراً ولكن العذاب مقيم .

فإذا كان هذا المأفون لا يزال يلقي هذا العقاب في الدار الأخرى بينا هو لا يعدو أن ركبته نزوة من الحمق فيقيني أن من تذرعوا بالـدين تحقيقاً لشرورهم ينتظرهم كيل أعظم .

أما طغاتنا نحن فقد نثروا في فرنسا رموزاً لا أدري كنهها كالضفادع والزنابق والقارورة المقدسة والشعلة الذهبية[1] ، وكلها أشياء لا أريد أيا

---

(١) كانت هذه الرموز تزين خواتم الملوك وأختامهم وأزياءهم وسـلاحهم ومتاعهم وكـان كل منهـا بمثابـة نواة تـراكمت حولهـا الحكايـات والأسـاطيـر على مـر العصور . فالزنابق مثـلاً أصلها أن الملك كلوفيس قبـل أن يهتدي المسيحيـة كانت رموزه الأهلّة (وهنا تنطوي القصة على خلط بين الوثنية والإسلام) ولكن ناسكاً أعطى زوجته المسيحية كلوتيلد درعاً يحمل الزنابق الثلاث مؤكداً لها أن زوجها منتصر به ، فلما انتصر تنصر . كذلك الشعلة الـذهبية (وهي رايـة في صورة الشعلة أكثر استخدامها استخدام زخرفي في مواكب الملوك) قصتها أن امبراطور القسطنطينية رأى في المنام فارساً يقف بجـانب مضجعه وبيـده رمح خرج منه اللهب وعندئذ بدا له ملاك ينبئُه أن هذا الفارس لا أحد غيره هو الذي

كانت ماهياتها أن أثير التشكك فيها ما دمنا وما دام أجدادنا لم نر مدعاة للإرتداد عن تصديقها إذ وهبنا على الدوام ملوكاً طيبين في السلم شجعان في الحرب حتى ليخال المرء أنهم وان ولدوا ملوكاً لم تسوهم الطبيعة على غرار الآخرين وإنما اختارهم الله القادر على كل شيء قبل أن يولدوا لحكم هذه المملكة والحفاظ عليها[1] . وحتى لو لم يكن الأمر كذلك لما أردت الخوض في الحديث عن صحة قصصنا ولا نقدها نقداً دقيقاً حتى لا أفسد جمالاً قد يتبارى فيه شعراؤنا أمثال رونسار وبابيف وبلاي[2] الذين لا أقول أنهم حسنوا شعرنا بل خلقوه

سوف يخلص أراضيه من قبضة العرب . وكان هذا الفارس هو شارلمان ملك الفرنجة . ولكن أحب هذه القصص إلى النفوس وأثبتها في الاعتقاد لاتصالها بالمشاعر الدينية كانت تلك المتعلقة بالقارورة أو القنينة المقدسة وهي زجاجة صغيرة تحوي الزيت الذي كانت تقضي الطقوس بدهن الملك به كما سبقت الاشارة إليه . قيل أن القس المكلف باحضار الزيوت الطاهرة قد عاقته حشود الجماهير عن الوصول في الميعاد يوم تعميد الملك كلوفيس فهبطت يمامة من السماء تحمل إلى القديس ريمي (الأسقف المعمد) « أنبولة » صغيرة حوت الزيت المطلوب . هذا الدهان الذي ليس من هذه الأرض محفوظاً في قارورته الأصلية بكاتدرائية رانس ولهذا كان تتويج ملوك فرنسا يتم دائماً في هذه المدينة .

(١) أغلب الظن أن لابويسيه لا يشير هنا إلى رموز الملك بل إلى أمارات العرق مثل علامة الرمح التي قيل أنها كانت تميز العائلات النبيلة في طيبة اليونانية . نسجت أمثال هذه الروايات عن الملوك المسيحيين في القرون الوسطى فقيل أنهم يتميزون بعلامة في هيئة الصليب على الكتف دليلاً على اختيار الله لهم .

(٢) ينتمي هؤلاء الشعراء الثلاثة إلى جيل قريب العهد باكتشاف ذخائر الأدب اليوناني فكانت أول رغبات المثقفين في وقت بدأت تتأجج فيه المشاعر الوطنية

خلقاً جديداً وبذا تقدموا بلغتنا تقدماً يجعلني أجرؤ على الأمل في ألا تعود بعد ذلك لليونانية واللاتينية مزية عليها سوى حق الأقدم . فلا شك في أني سوف أسيء إلى نظمنا (ولا أنكر أني أستخدم هذه الكلمة طواعية لأنه إذا كان من الحق أن البعض قد جعل من النظم صنعه آلية فمن الحق أيضاً أن هناك عدداً كافياً من القادرين على استرجاع نبله ومقامه الأول) ، أقول إني أسيء الآن إلى نظمنا لو أني جردته من حكايات الملك كلوفيس الجميلة بعد أن رأيت بأي رشاقة وسهولةيسبح فيها وحي رونسار في فرنسويّاته . إني أحس أثر الرجل في المستقبل ، إني أعرف توقد فكره وأعلم لطفه : لسوف يوفي الشعلة الذهبية حقها مثلما صنع الرومان بدروعهم :

دروع السماء الملقاة على أرضنا[1]

كما يقول فرجيل ، لسوف يرفق بقارورتنا رفق الأثينيين بسلّة

مع تحقق وحدة المملكة على يد أسرة فالوا هي أن يسبغوا على اللغة الفرنسية وشعرها الجمال الذي أحبوه في اليونانية . أعلن بلاي مذهبهم في كتابه **دفاع وبيان عن اللغة الفرنسية** الذي نشر عام ١٥٤٩ ، وتألفت منهم جماعة الـ **بلياد** كما سماها رونسار الذي نشر هو أيضاً موجزاً في فن الشعر . ولا غرو أن يعرب لابويسيه عن اعجابه بهم فقد أثْروا اللغة الفرنسية بوسائل لا تحصى : خلق الجديد ، استرجاع القديم ، الاشتقاق من اللاتينية واليونانية والايطالية ، حرية الصرف والنحو ، ابتكار صيغ جديدة لا وجود لها في اللغة الفرنسية وإن وجدت في اللغات الأخرى ، الخ

(١) دروع قيل أنها سقطت من السماء على أرض روما في عهد الملك نوما وأن الغلبة سوف تظل دائماً لهذه المدينة طالما احتفظ الرومان بها .

إريكتوُن[1] ولسوف يجعل الناس تشيد بشعاراتنا مثلما شاد الأثينيون بغصن الزيتون الذي لا زالوا يحفظونه في برج منيرفا . لهذا كنت أتجاوز الحد يقينا لو أني أردت تكذيب كتبنا وجريت في مراتع شعرائنا . ولكني لكي أعود إلى موضوعي الذي لا أدري كيف أفلت مني خيطه ألحظ أن الطغاة كانوا يسعون دائماً كيما يستتب سلطانهم إلى تعويد الناس على أن يدينوا لهم لا بالطاعة والعبودية فحسب بل بالاخلاص كذلك[2] .

ـ فكل ما ذكرته حتى الآن عن الوسائل التي يصطنعها الطغاة ليعلموا الناس كيف يخدمونهم طواعية إنما ينطبق على الكثرة الساذجة من الشعب .

إني أقترب من نقطة هي التي يكمن فيها على ما أعتقد زنبلك السيادة وسرها ويكمن أساس الطغيان وعماده . إن من يظن الرماحة

---

(١) اريكتون بطل اسطوري قيل أنه إنحدر من هيفاستوس ملك الحدادين (فولكان عند الرومان) وأن الآلهة أثينا عنيت به عند ولادته فوضعته في سلة عهدت بها إلى ثلاث أخوات شريطة ألا يفتحنه ولكنهن فعلن فأصابهن الجنون إما لغضب الآلهة وإما لأن الطفل كان انساناً نصفاً ونصفاً ثباناً وألقين بأنفسهن من قمة جبل الأكروبول . صار الطفل ملك أثينا فأدخل عبادة الآلهة ، وإليه ينسب أيضاً أنه اخترع العربات ليخفي نصفه الثعباني .

(٢) يسدي ابن الربيع ـ لا فُضّ فوه ـ بهاتين النصيحتين إلى المالك في سياسة جمهور الرعية : « يجتهد في استمالة قلوبهم ، وجعل طاعتهم رغبة لا رهبة » . وليجعل محبتهم له اعتقاداً دينياً لاطمعا في أغراض الدنيا » . (**سلوك المالك في تدبير الممالك** ، تحقيق ناجي التكايتي ، بغداد ، ص ١٨٠) .

والحرس وأبراج المراقبة تحمي الطغاة يخطىء في رأيي خطأ كبيراً . ففي يقيني أنهم إنما يعمدون إليها مظهراً واثارة للفزع لا ارتكاناً إليها . فالقواسة تصد من لا حول لهم ولا قوة على اقتحام القصر ولكنها لا تصد المسلحين القادرين على بعض العزم . ثم أن من السهل أن تتحقق أن أباطرة الرومان الذين حماهم قواسهم يقلون عدداً عمن قتلهم حراسهم . فلا جموع الخيالة ولا فرق المشاة ولا قوة الأسلحة تحمي الطغاة .

الأمر يصعب على التصديق للوهلة الأولى ولكنه الحق عينه : هم دوماً أربعة أو خمسة يبقون الطاغية في مكانه ، أربعة أو خمسة يشدون له البلد كله إلى مقود العبودية ، في كل عهد كان ثمة أربعة أو خمسة تصيخ إليهم أذن الطاغية ، يتقربون منه أو يقربهم إليه ليكونوا شركاء جرائمه وخلان ملذاته وقواد شهواته ومقاسميه فيما نهب . هؤلاء الستة يدربون رئيسهم على القسوة نحو المجتمع لا بشروره وحدها بل بشروره وشرورهم . هؤلاء الستة ينتفع في كنفهم ستمائة يفسدهم الستة مثلما أفسدوا الطاغية ، ثم هؤلاء الستمائة يذيّلهم ستة ألف تابع ، يوكلون إليهم مناصب الدولة ويهبونهم أما حكم الأقاليم وأما التصرف في الأموال ليشرفوا على بخلهم وقساوتهم وليطيحوا بهم متى شاؤوا تاركين اياهم يرتكبون من السيئات ما لا يجعل لهم بقاء إلا في ظلهم ولا بعدا عن طائلة القوانين وعقوباتها إلا عن طريقهم . ما أطول سلسلة الأتباع بعد ذلك ! إن من أراد التسلي بأن يتقصى هذه الشبكة وسعه أن يرى لا ستة آلاف ولا مائة ألف بل أن يرى الملايين يربطهم بالطاغية هذا الحبل ، مثل جوبيتر إذ يجعله هوميروس يتفاخر بأنه لو شد سلسلته

لجذب إليه الآلهة جميعاً . من هنا جاء تضخم مجلس الشيوخ في عهد يوليوس[1] وجاء خلق المناصب الجديدة وفتح باب التعيينات والترقيات على مصراعيه ، كل هذا يقينا لا من أجل إصلاح العدالة بل أولاً وأخيراً من أجل أن تزيد سواعد الطاغية . خلاصة القول إذاً هي أن الطغاة تُجنى من ورائهم حظوات وتجنى مغانم ومكاسب فإذا من ربحوا من الطغيان ، أو هكذا هيىء إليهم ، يعدلون في النهاية من يؤثرون الحرية . فكما يقول الأطباء أن جسدنا لا يفسد جزء منه إلا انجذبت أمزجته إلى هذا الجزء الفاسد دون غيره كذلك ما أن يعلن ملك عن استبداده بالحكم إلا التف حوله كل أسقاط المملكة وحثالتها ، وما أعني بذلك حشد صغار اللصوص والموصومين الذين لا يملكون لبلد نفعاً ولا ضراً بل أولئك الذين يدفعهم طموح حارق وبخل شديد[2] ، يلتفون حوله ويعضدونه لينالوا نصيبهم من الغنيمة وليصيروا هم أنفسهم طغاة مصغرين في ظل الطاغية الكبير . هكذا الشأن بين كبار اللصوص ومشاهير القراصنة : فريق يستكشف البلد وفريق يلاحق المسافرين ، فريق يقف على مرقبة وفريق يختبىء ، فريق يقتل وفريق يسلب . ولكنهم وأن تعددت المراتب بينهم وكانوا بعضاً توابع وبعضاً رؤساء إلا أنه ما من أحد منهم إلا خرج بكسب ما ، إن لم يكن بالغنيمة كلها فيما

---

(١) المراد يوليوس قيصر .

(٢) المراد بالبخل هو بوجه خاص الاكتناز بالمعنى الذي سجله ماركس إذ قال في وصف سيكولوجية المكتنز : « من أجل متعة خيالية لا حدود لها يترك كل متعة في الواقع » .

انتشل . ألا يحكى أن القراصنة الصقليين[1] لم تبلغ فقط كثرة عددهم حداً لم يجعل من إرسال بومبي أعظم قواد العصر لمهاجمتهم بـل هم فوق ذلك قد جرّوا إلى التحالف معهم عدداً كبيـراً من المدن الجميلة والثغور العظيمة التي كانوا يلوذون بها بعد غزواتهم لقـاء بعض الربـح مكافأة على إخفاء أسلابهم ؟

هكذا يستعبد الطاغية رعاياه بعضهم ببعض ، يحرسه من كان أولى بهم الاحتراس منه لو كانوا يساوون شيئـاً ، وهكذا يصـدق المثل : لا يفل الخشب إلا مسمار من ذات الخشب . ها هو ذا يحيط به قواسته وحراسه وحاملو حرباته ، لا لأنهم ر يقاسون الأذى منه أحياناً بل لأن هؤلاء الضالين الذين تخلى الله عنهم وتخلت الناس يستمرئون إحتمال الأذى حتى يردوه لا إلى من أنزله بهم بل إلى من قاسوه مثلهم دون أن يملكوا إلا الصبر . غير أني إذ أنظر إلى هؤلاء الناس الذين يجرون وراء كُرَات الطاغية مآربهم من وراء طغيانه ومن وراء عبودية الشعب على حد سواء يتملكني أحياناً كثيرة العجب لرداءتهم وأرثي أحياناً لحماقتهم : فهل يعني القرب من الـطاغية في الحقيقـة شيئاً آخـر سوى البعـد عن الحرية واحتضانها بالذراعين ، إذا جاز هذا التعبير ؟ ليتركـوا ولو حينـا مـطامعهم ، وليتجردوا ولـو قليـلاً من بخلهم ، ولينـظروا بعـدئـذ إلى أنفسهم وليقبلوا على معـرفتها : لسـوف يرون عنـدئذ أن أهـل القـرى والفلاحين الذين يحلو لهم دوسهم بالأقدام طالما استطاعوا وتحلو لهم

---

(1) القراصنة المشار إليهم كانوا يفدون بالأصح لا من صقلية بل من سيسيليا على ساحل آسيا الصغرى الجنوبي .

معاملتهم معاملة أشر من معاملة السخرة والعبيد ، سوف يرون أن هؤلاء المستضعفين هم مع ذلك أسعد حظاً وأوفر حرية بالقياس إليهم . فالأجير والحرفي وإن استعبدا يفرغان مما ضُرب عليهما بأداء ما يطلب إليهما . ولكن الطاغية يرى الآخرين يتزلفون إليه ويستجدون حظوته ، فعليهم لا العمل بما يقول وحسب بل عليهم أيضاً التفكير فيما يريد وغالباً ما يحق عليهم أن يحدسوا ما يدور بخلده حتى يرضوه . فطاعتهم له ليست كل شيء بل تجب أيضاً ممالأته والانقطاع له ويجب أن يعذبوا أنفسهم وأن يَنْفقوا في العمل تحقيقاً لمراميه . ثم لمّا كانت نفوسهم لا تلذ لهم إلا إذا لذت له ، فليتركوا أذواقهم لذوقة وليتكلفوا ما ليس منهم وليتجردوا من سليقتهم ، عليهم الانتباه لكلماته وصوته ولما يبدو منه من العلامات ولنظراته ، لينـزلوا عن أعينهم وعن أرجلهم وأيـديهم وليكن وجودهم كله رصداً من أجل تجسس رغباته وتبين أفكاره . أهـذه حياة سعيدة ؟ أتسمى هذه حياة ؟ هل في الـدنيا شيء أقسى احتمـالاً ، لا أقول على رجل ذي قلب ولا أقول على انسان حسن المولد وإنما على كائن حظي بقسط من الفهم العام أو له وجه انسان لا أكثر ؟ أي وضع أشد تعساً من حياة على هذا النحو لا يملك فيها المـرء شيئاً لنفسـه ، مستمداً من غيره راحته وحريته وجسده وحياته ؟

لكنهم يريدون العبودية ليجنوا من ورائها الأملاك : كما لو كان في مستطاعهم أن يغنموا شيئاً بينا هم لا يستطيعون أن يقولوا أنهم يملكون أنفسهم . يرودون لو حازوا الأشياء كأن للحيازة متسعاً في ظل الطاغية ويتناسون أنهم هم الذين أعطوه القوة على أن يسلب الجميع كل شيء دون أن يترك لأحد شيئاً يمكن القول أنه له . أنهم يرون أنه ما من شيء

يعرض الناس لقسوته مثل الخير وأنه لا جريمة نحوه تستحق الموت في نظره كحيازة ما يستقل به المرء عنه . إنهم يرون أنه لا يحب إلا الثروات ولا يكسر إلا الأثرياء ـ وهم مع هذا يسعون إليه سعيهم إلى الجزار كي يمثلوا بين يديه ملأى مكتنزين ولكي يستثيروا جشعه . هؤلاء المقربون قد كان أولى بهم ألا يتذكروا من غنموا من الطغاة والحياة جميعاً . كان أولى بهم أن يتعظوا لا بالكثرة التي أثرت بل بالقلة التي استطاعت الاحتفاظ بما كسبت . لنستعرض كل القصص القديمة ولنستعد تلك التي تعيها ذاكرتنا : لسوف نرى ملء عيوننا إلى أي مدى كثر الذين اجتذبوا آذان الطاغية بطرق بخسة محركين سوء جبلتهم أو مستغلين غفلتهم ثم إذا هم بعد ذلك يُسحقون في النهاية سحقاً بأيدي الأمراء أنفسهم ، لا يعدل مقدار السهولة التي علّوهم بها إلا مقدار ما خبروه من انقلابهم إلى ضربهم . هذا العدد الغفير من الناس الذين عاشوا في حمى هذه الكثرة من الملوك الأرذال لم يسلم منهم يقيناً إلا القليل ، إن لم نقل لم يسلم منهم أحد ، من قسوة الطاغية التي بدأوا بتأليبها ضد الآخرين : ففي معظم الأحيان يثرى الغير بما يسلبون بعد أن أثروا هم بما سلبوا في ظل ما تمتعوا به من الحظوة.

أما القوم الأفاضل، لو وجد بينهم رجل يحبه الطاغية لا يقربها أحد ولو كان أردأ الناس صنفاً إلَّا أثارتا فيه بعضاً من الاحترام، هؤلاء القوم لا دوام لهم في كنف الطاغية : فهم يؤولون إلى ما آل إليه الجميع ولا يجدون مفراً من أن يعرفوا بخبرة مرة ما هو الطغيان . خذ مثلاً هؤلاء الثلاثة الأفاضل : سينيكا وبورّوس وترازياس[1] . الأولان منهما كان

(١) سينيكا هو الفيلسوف الرواقي المعروف ، بوروس كان معلماً لنيرون وتراسياس

من نكد طالعهما أن عرفا الطاغية فترك لهما إدارة أشغاله وأكن لهما التقدير والاعزاز ، خاصة وأن أولهما كان قد تعهده في طفولته وكان له في ذلك ضمان لصداقته ، ولكن ثلاثتهم يشهد موتهم الأليم شهادة كافية بأن حظوة السيد الرديء ليس أقل من ضمانها . وفي الحق أي ضمان يرتجى من رجل قسا قلبه حتى شمل كرهُه مملكتَه المذعنة لأمره ونضبت فيه معرفة الحب فلم يعد يعرف إلا كيف يعدم نفسه ويدمر امبراطوريته ؟

فلو قلنا أن هؤلاء الثلاثة إنما ترددوا في هذه العواقب لحسن خلقهم كفى أن نسدد النظر حول نيرون نفسه لنرى أن الذين لقيوا حظوته واستقروا فيها بأرذل الوسائل لم يدم عهدهم زمناً أطول . من الذي سمع عن حب استسلم له صاحبه بلا حد ، عن اعزاز بلا قيد ، من الذي قرأ في أي زمن من الأزمنة عن رجل ولع بإمرأة ولعاً عنيداً ملازماً كولع نيرون هذا قبل بوبّيا[1] ؟ ثم بعدئذ دس لها السم ! ألم تقتل أمه أجريبّينا[2] زوجها كلوديوس حتى تفسح له الهيمنة على الامبراطورية ؟ ألم تبذل ما وسعت ، ألم تُقبل طواعية على كل إثم إعلاء له ؟ ومع هذا ما لبث ابنها هذا ، رضيعها ، امبراطورها الذي صنعته بيدها ، ما لبث

كان عضواً بمجلس الشيوخ . ثلاثتهم استغلوا مستشارين لنيرون وثلاثتهم اتهمهم نيرون بخداعه والكيد له ، فحكم على بوروس بالسجن أما الآخران فانتحرا .

(١) بوبّيا محظية نيرون . تزوجها ثم قتلها ويقال بركلة قدم ـ عام ٦٥ .

(٢) تزوجت أجريبينا أم نيرون ثلاث مرات وكان آخر أزواجها عمها الامبراطور كلوديوس . جعلته يتبنى ولدها نيرون ثم سمّته حتى يعتلي نيرون العرش . ولكنه ضاق بها فأمر بقتلها .

بعد أن جحدها مراراً أن انتزع حياتها في النهاية ، وإنه لَعقاب ما كان أحد ينكر أنه جزاءها المستحق لو أن يداً أخرى أنزلته بهـا غير يـد من مكنته . أي رجل كان أسهل انقياداً وأكثر سذاجة أو بالأصح أكثـر بلهاً من الامبراطور كلوديوس ؟ أي رجل ركبته إمرأة مثلما ركبته مِسالينا[1] ؟ ومع هذا أسلمها أخيراً ليد الجلاد ! إن الغباوة تلازم الطغاة دائماً حتى حين يريدون اسـداء الحسن إذا أرادوا اسداءه ، ولكنهم حين يـريدون البـطش بـالمقـربين إليهم يستيقظ فيهم لا أدري كيف القـليـل من فصاحتهم . ألا نعلم هذه النادرة التي فاه بها هذا الذي رأى صدر المرأة التي شغف بها أيما شغف حتى بدأ كأنه لا يستطيع الحياة بدونها ، رآه عارياً فداعبها بهذه المزحـة : هذا العنق الجميـل قد يقـطف قريبـاً لو أردت ؟ لهذا كان معـظم الطغـاة القدامى يـلاقون حتفهم على أيـدي المقربين إليهم الذين إذ عرفوا طبيعة الطغيـان لم يستطيعـوا الاطمئنان إلى إرادة الطاغية بقدر ما حذروا قوته . هكذا قُتل دُوميسْيانَ اتّين وقَتلت كومودس إحدى محظياته كمـا قُتل أنطونان على يد مارسـان ، وهكذا في سائرهم[2] .

إن من المستيقن أن الـطاغية لا يلقي الحب أبـداً ولا هـو يعـرف الحب . فالصداقة اسم قدسي وجوهر طاهر ، إنها لا تعرف لها محلاً إلا بين الأفاضل ولا تؤخذ إلا بالتقدير المتبادل وليس باغـداق النعم .

(١) كانت مسالينا (١٥ ـ ٤٨) الزوجة الرابعة للامبراطور كلوديوس وأم بريتانيكوس وأكتافيا ، ضربت بفجورها الأمثال .

(٢) الأباطرة دوميسيان وكومودوس وانطونان (الذي عرف باسم كاراكالا) حكمـوا على الترتيب في السنوات الآتية : ٨٠ إلى ٩٦ ، ١٨٠ إلى ١٩٢ ، ٢١١ إلى ٢١٧ .

فالصديق إنما يأمن إلى الصديق لما يعرفه من استقامته ، ضمانته هي استقامته وصدق طويته وثباته . فلا مكان للصداقة حيث القسوة ، حيث الخيانة ، حيث الجور . فالأشرار إذا اجتمعوا تآمروا ولم يتزاملوا ، لا حب يسود بينهم وإنما الخشية ، فما هم بأصدقاء بل هم متواطئون .

وحتى لو صرفنا النظر عن هذه العوائق لتبينا أن من الصعب أن يضم فؤاد الطاغية حباً يوثق به ، لأنه إذ علا الجميع وعدم كل رفيق قد خرج بهذا عينه عن حدود الصداقة التي مقعدها الحق هو المساواة والتي تأبى دوماً التعثر في خطواتها المتساوية أبداً . لهذا نرى (فيما يقال) شيئاً من القسط بين اللصوص عند اقتسام الغنيمة لأنهم متزاملون متكافلون ، وإذا كانوا لا يتبادلون الحب فهم على الأقل يتبادلون الحذر ولا يرغبون في إضعاف قوتهم بالتفرق بدل الوحدة . أما الطاغية فما يستطيع المقربون إليه الاطمئنان إليه أبداً ما دام قد تعلم منهم أنفسهم أنه قادر على كل شيء وأنه لا حق ولا واجب يجبرانه وما دام تعريفه صار يقوم في اعتبار إرادته العقل وفي انتفاء كل نظير وسيادة الجميع . أليس أمراً يدعو إلى الرثاء أن كل هذه الأمثلة الواضحة وهذا الخطر الدائم لا تدعو أحداً إلى الاتعاظ بها وأن يتقرب إلى الطاغية طواعية هذا العدد الغفير من الناس دون أن يجد أحد الحصافة والجرأة اللتين تمكناه من أن يقول ما قاله الثعلب ، على ما ورد في الحكاية ، للأسد الذي اصطنع المرض : « كنت أزورك طواعية في عرينك لولا أني أرى وحوشاً كثيرة تتجه آثارها قدماً إليك وما أرى أثراً يعود » .

هؤلاء التعساء يرون بريق كنوز الطاغية وينظرون مشاهد بذخه وقد بهرتهم أشعتها فإذا هذا الضوء يغريهم فيقتربون منه دون أن يروا أنهم

إنما يلقون بأنفسهم في اللهب الذي لن يتخلف عن اهلاكهم . هكذا صنع الساتير[1] الطفيلي الذي تحكى الحكاية أنه شهد النار التي اكتشفها بروميثيوس وهي تضيء فرأى لها جمالاً فائقاً فذهب يقبلها فاحترق . مثله مثل الفراشة التي تلقي بنفسها في النار أملاً في الحظوة بلذة من نورها فإذا هي تعرف قوتها الأخرى : قوتها الحارقة ، كما يقول الشاعر التسكاني[2] . ولكن لنفرض أن هؤلاء الأغرار يفلتون من قبضة من يخدمون ، أيعلمون أي ملك آت من بعد ؟ إذا كان طيباً وجبت الإجابة عما صنعوه ولِمَ صنعوه ، وإذا كان سيئاً شبيهاً بسيدهم فلسوف يصحبه أيضاً أتباعه الذين لا يقنعون بالاستحواذ على مكان الآخرين بل تلزمهم أيضاً في معظم الأحايين أملاكهم وحياتهم . أيمكن إذاً وهذا مدى التهلكة ومدى قلة الأمن أن يكون هناك امرؤ يرغب في ملأ هذا المكان البائس ليقاسي خدمة سيد هذا مبلغ خطره؟ أي عذاب، أي استشهاد هذا ، أيها الرب الحق ! أن يقضي المرء النهار بعد الليل وهو يفكر كيف يرضى واحداً بينا هو يخشاه مع ذلك أكثر مما يخشى أي انسان آخر على وجه البسيطة ، أن يكون عيناً دائمة البص وأذناً تسترق السمع حتى يحدس مأتى الضربة القادمة وموقع المصائد وحتى يقرأ في وجوه أقرانه أيهم يغدر به ، يبتسم لكل منهم وهو يخشاهم جميعاً ، لا عدواً سافراً يرى ولا صديقاً يطمئن إليه ، الوجه باسم والقلب دام ، لا قبل له بالسرور ولا جرأة على الحزن !

ولكن الأغرب هو أن نرى ما يعود عليهم من هذا العذاب الشديد

(١) كائن في صورة انسان له قرون الماعز وأقدمها . يطلق مجازاً على الفاجر .
(٢) المراد بترارك .

والكسب الذي يستطيعون توقعه من مكابدتهم وحياتهم البائسة . فالذي يقع هو أن الشعب لا يتهم الطاغية أبداً بما يقاسيه وإنما ينسبه طواعية إلى من سيطروا عليه : هؤلاء تعرف أسماءهم الشعوبُ والأممُ ويعرفها العالم قاطبة حتى الفلاحين والأجراء ، يعرفونها ويصبون عليهم ألف قذيعة وألف شتيمة وألف سبة ، كل أدعيتهم وأمانيهم تتجه ضدهم ، كل ما يلحق بهم من البلايا والأوبئة والمجاعات يقع فيه اللوم عليهم ، فإن تظاهروا أحياناً بتبجيلهم سبوهم معاً في قلوبهم ونفروا منهم كما لا ينفرون من الوحوش الكاسرة . هذا هو الشرف وهذا هو المجد اللذان ينالون جزاء على ما صنعوه تجاه الناس الذين لو ملك كل منهم جزءاً من أجسادهم لما اجتزأ ولا رأى فيه نصف عزاء عن شقائه ، فإن أدركهم الموت لم يتوان من يجيء بعدهم عن أن يظهر بينهم ألف قلم يسوّد بمداده أسماء آكلي الشعوب[1] هؤلاء ويمزق سمعتهم في ألف كتاب ، وحتى عظامهم ذاتها ، إذا جاز هذا التعبير ، يمرغها في الوحل عقاباً لهم بعد مماتهم على فساد حياتهم .

لنتعلم إذن . لنتعلم مرة أن نسلك سلوكاً حسناً . لنرفع أعيننا إلى السماء بدعوة من كرامتنا أو من محبة الفضيلة ذاتها أو إذا أردنا الكلام عن علم فيقينا بدعوة من محبة الله القادر على كل شيء وتبجيله ، ولهو الشاهد الذي لا يغفل عن أفعالنا والقاضي العادل في أخطائنا . أما فيما تعلق بي فإني لأرى ، ولست بالمخدوع ما دام لا شيء أبعد عن الله وهو الغفور الرحيم من الطغيان ، أنه يدخر في الدار الأخرى للطغاة وشركائهم عقاباً من نوع خاص .

(١) آكلو الشعوب وصف ورد في الإلياذة عدة مرات، خلعه هوميروس على بعض الملوك.

الفهـــرس

الموضوع | الصفحة